المقامة السابعة والأربعون وهي الحجرية

حكى الحارثُ بن هَمَّام : قال : احتجتُ إلى الحِجامَةِ ، وأنا بِحَجْرِ اليَمامة ، فأُرْشِدْتُ إلى شَيْخٍ يَحجُمُ بلطافة ، ويُسْفِرُ عن نَظَافة ؛ فبعثتُ غلامِي لإحضاره ، وأرْصَدْتُ نَفْسِي لانتِظَارِه . فأبْطأ بَعْد ما انْطَلَق . حتى خِلْتُه قد أَبَق ، أو رَكِبَ طَبَقاً عَنْ طَبَق . ثم عَاد عَوْدَ المُخْفِق ، مَسْعَاه . الكَلُّ على مَوْلَاه ، فقلتُ له : ويلك ! أَبُطْءٌ فِنْد . وصُلُودَ زَنْد ! فزعَم أنَ الشَّيْخَ أَشْغَلُ من ذاتِ النِّحيَين ، وفى حَرْبٍ كحربِ حُنَيْن ، فعمتُ المَمْشَى إلى حَجّام ، وحِرتُ بين إقدامٍ وإحْجَام ؛ ثم رأيتُ ألاَّ تَعْنِيف . على مَنْ يأتى الكَنِيف .

* * *

قوله : احتجتُ للحِجامة ، وأنا بِحَجْرِ اليَمامَة . أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « خير ما تداويتم به الحجامة والشُّونيز والقُسط » .

القسْط : عودٌ يجاء به من الهند ، يُجعل فى الدّواء والبخور .

وروى ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « خيرُ يوم يُحْتَجَم فيه سبعة عشر وتسعة عشر وأحد وعشرون ، وما مررتُ بملأ من الملائكة ليلةَ أُسْرِىَ بى إلاّ قالوا : عليك بالحِجَامة يا محمد » .

وقال عبدُ الله بن عمر رضى الله عنهما : لقد تبيّغ[1] بى الدّم يا نافع ، ادْعُ لى حجّاماً ، ولا تجعله شيخاً كبيراً ، ولا صبيًّا . ثم قال : سمعت رسول الله صلى الله

(١) التبيغ : ثوران الدم .

عليه وسلم يقول : « الحجامة على الرّيق أمْثَلُ ، فيها شفاء وبَرَكة ، تزيد فى العقل والحفظ ، وتزيد الحافِظَ حفظاً ، فمن احتجم فيومَ الخميس والأحـــد والاثنين والثلاثاء ، فإنه يومٌ رفع الله فيه البلاء » .

عن أيوب عليه السلام ، وأصابه [مرض] يوم الأربعاء : لا يبدأ جذام أو برص إلا فى يوم الأربعاء أو ليلته .

حَجْر : قصبة . اليمامة : يأتى ذكرها فى الخمسين إن شاء الله تعالى ، وهى بلدة كبيرة كثيرة النخل ، وسكنتْها حَنيفة ، وهى بلدة مسيلمة الكذاب الحنفىّ ، وبها تنبّأ وآمن به أهلُها ، وهى « فَعالَة » من اليَمَم ، وهو طائر ، أو من يَمَّمتُ الشىء إذا تعمّدتَه . من الأمام ، بمعنى قدّام ، وأبدلت الهمزة ياء لمّا دخلتْها الهاء ، وأقرب المدن منها البصرة .

يُسفر : يكشف . نظافة : صقالة وحسن . أرصدت : أعددت . أبَق : هرب . طبقاً عن طبق : حالاً عن حال ، وأمراً عن أمر . المخفِق : الخائب . مسعاه : سعيه . الكَلّ على مولاه : الذى لا ينفعه بشىء ، ولا يكفيه أمرَ نفسه ، والكَلّ : الثقيل الروح . قوله : صُلود زَنْد ، هو ألّا يسمح الزّند بالنار . حُنَين : موضع وقعة مشهورة ، كانتْ بين النبى صلى الله عليه وسلم وبين هوازن ، هُزِمت فيها هوزان ، وسُبِيَتْ أموالهمُ وعيالُهم ، وقُتِل فيها دُرَيد بن الصّمة كافراً . عِفْت : كرهت . الإقدام : الجُرأة والترامى . والإحجام : الرجوع إلى خَلْف ، أراد أنه ردّد رأيه : هل يأتيه أم لا ؟ والتَّعنِيف : العتب . والكنيف : المرحاض .

[حكاية ظريفة تَجْمع أسماء المرحاض]

ونذكر هنا حكاية ظريفة تجمع أسماءه . رحَل رجلٌ من الكوفة إلى ابن عمٍّ له من بنى هاشم بالمدينة ، فأقام حوْلاً عنده ، لا يدخل مُستراحًا ، فلما أراد

الرجوع إلى الكوفة ، قال ابنُ عمّه لقينتين له : أما رأيتما ظَرْفَ ابن عمّى ، أقام حولاً عندنا لم يدخل الخلاء ، قالتا : فعلينا أن نصنع له شبثاً لا يجد معهُ بُدًّا من الخلاء ، قال : شأنكما ، فعَمَدتا إلى حشب العُشَر ، وطرحتاه فى شرابه وهو مسهّل ؛ فلما حضر وقت شرابهما قرّبتاه له وسقتا مولاها من غيره ، فلما أخذ الشراب منهما تناوم مولاها ، ومَغَص الفتى من بعده ، فقال لإحداهما : يا سيدتى ، أين الخلاء ؟ فقالت لها صاحبتها : ما يقول لك ؟ قالت : يسألك أنْ تُغنّيه :

عَفَا من آل فاطمـة الجِوَاءُ ... فمنزل أهلها منها خَلَاءُ

فغنّته ، فقال : أظنّهما كوفيتين ، فقال الأخرى : يا سيدتى أين الحشّ ؟ فقالت لها صاحبتها : ما يقول لك ؟ قالت : يسألك أن تغنّيه :

* لقد أوحش الرَّيانُ فالدّيْر منهما *

فغنّته ، فقال الفتى : أظنّهما عراقيّتين ، وما فهمتا عنى ، فقال للأخرى : يا سيدتى ، أين المتوضّأ ؟ فقالت لها صاحبتها : ما يقول لك ؟ قالت : يسأل أنْ تغنّيه :

توضّأْ للصّلاة وصَلِّ خمساً ... وأذّن بالصّلاة على النبىّ

فقال : أظنّهما حجازيّتين ، وما فهمتا عنى ، فقال لإحداهما : يا سيدتى ، أين الكنيف ؟ فقالت لها صاحبتها : مايقول لك ؟ قالت : إنه يسألك أن تغنّيه :

تَكنّفنى الواشُونَ من كلّ جانبٍ ... ولو كان واشٍ واحدٌ لكفانِى

فغنّته ، فقال : أظنّهما تهاميّتين ، فقال للأخرى : يا سيدتى أين المستراح ؟ فقالت لصاحبتها : ما يقول لك ؟ قالت : يسألك أن تغنّيه :

تَرَكْ الفُكاهة والمُزاحَا ... وقلّى الصّبابة فاستراحَا

فغنّته ، والمولى يسمع ، فلما كَرَبه الأمر أنشأ يقول :

تكنّفنى المِلاحُ وأضجَرُونى ... على ما بى بتكرير الأغانى
فلما ضاق عن ذاك اصطبارى ... ذرقتُ به على وجْه الزوانى

ثم حلّ سراويله ، وسلّح عليهما ، فتركهما آية للناظرين . وانقلب مولاهما ، فلما رأى ما نزل بهما ، قال له : يا أخى ما حملك على هذا ؟ قال له : يا بن الزانية ، لك جوارٍ يرين المخرجَ صراطاً مستقيماً فلا يدْلُنَنى عليه ، فلم يكن لهنّ جزاء عندى غير هذا ، ثم رحَل عنه .

فيقول أبو محمد : لا بأس للإنسان أن يأتىَ المواضع الخسيسة عند الضرورة ، وأصل الكنيف الساتر .

* * *

فلما شهِدتُ مَوْسِمَه ، وشاهَدْتُ مِيسَمَهُ ، رأيتُ شيخا هيئتُه نظيفة ، وحركتُه خفيفة . وعَلَيْه من النَّظارة أطْوَاق ، ومن الوَسَامة طِباق . وبين يديه فتًى كالصَّمْصَامة ، مُسْتَهْدِفٌ للحِجامة ، والشيخ يقول له : أراك قد أبرزتَ راسَك ، قبل أن تُبْرِزَ قِرْطاسَك ، وولّيتَنى قَذالك ، ولم تقل : لى ذا لَكَ ، ولستُ ممّن يبيع نَقْداً بدَيْن ، ولا يَطْلُب أثراً بعد عَيْن ، فإنْ أنتَ رَضَخْتَ بالعَيْن ، حُجِمتَ فى الأخْدَعَيْن . وإنْ كُنْتَ تَرَى الشُّحّ أوْلَى ، وخَزْنَ الفلْسِ فى النَّفْس أحْلَى ، فاقْرأ عَبَسَ وتولّى ، واغْرُبْ عَنّى وإلّا ؛ فقال الفتَى : والّذى حَرَّم صَوْغَ المَيْن ؛ كما حرّم صَيْد الحَرَمَيْن ؛ إنى لأفلَسُ من ابن يومين ، فثِقْ بسيْلِ تَلْعتى ، وأنظِرْنى إلى سَعَتِي .

* * *

موسمه : مجتمَعه وسوقه . مِيسَمَه : علامته . النظارة : الناس الناظرون . أطواق : أى حلقةٌ خلف حلقة ، قد استداروا حوله . والطِّباق : الذى طُوبق ، فجُعِل بعضُه على بعض ، شبَّه به ركوبَ بعضِ النَّاس بعضاً .

[الصمصامة]

والصَّمصامة : سيف عمرو بن معد يكرب ، وكانت تقطَع الحديد كما يَقطَع الحديدُ الخشبَ . وبعث مَلِكُ الهند إلى الرَّشيد بسيوفٍ قَلْعِيَّة ، وكلاب سَلُوقيَّة ، وثياب هندية ، فأمر الأتراك فصُفُّوا بين يديه صَفَّيْن ، قد لبسوا الحديد ، ودخل الرشيد فقال لهم : ما جئتم به ؟ قالوا : هذه أشرفُ كُسْوة بلادنا ، فأمرَ فقُطِّعت جِلالاً وبراقع لخيله ، فَكُبُّوا على وجوههم ، وتذمَّموا ، ثم قال : ما عندكم ؟ قالوا : هذه سيوف قَلْعية ، لا نظيرَ لها ؛ فدعا بالصَّمصامة ، فقُطِعت بها السيوفُ سيفاً سيفاً ، كما يُقطع الفُجْل من غير أن تثنى لها شَفْرة . ثم عرض عليهم حَدَّ السَّيف فإذا هو لا فَلَّ فيه ، ثم قال : ما عندكم ؟ قالوا : كلاب سَلوقيَّة ، لا يبقى لها كلبٌ ولا سَبُع إلاّ عقرتْه ، فأمر بالأسد فأُخْرِج إليهم ، فلما نظروا إليه هالهم ، وقالوا : ليس عندنا مثل سَبُعكم ، ثم أرسلوا عليه الأكلب — وكانت ثلاثة — فمزَّقته ، فقال : تمنَّوْا فى هذه الأكلب ماشئتم ، قالوا : السَّيف الذى قطع سيوفنا ، قال : لا يجوز فى ديننا أن نُهادِيَكم بالسلاح . فانقلبوا خائبين .

وكانت الصمصامة عند الهادى ، فدعا بها يوماً وبمكتلٍ مملوء دنانير ، وأمر الشُّعراء أن يقولوا فيه ، فبدأهم ابن يامين فقال :

حاز صَمْصامةَ الزُّبيدىّ عمرٌو من بين جميع الأنام موسى الأمينُ
سيف عمرو ، وكان فيما سمعنا خيرَ ما أُعْمِدَتْ عليه الجفونُ
أوقدت فوقه الصَّواعق ناراً ثم شابت به الزَّعافَ القُيُونُ

(١) الأبيات فى ابن خلكان ٢ : ٢٠٤ ، ونسبها إلى ابن يامين البصرى ، وهى فى ثمار القلوب ٦٢١ ، ونسبها إلى أبى الهول ، وكذلك فى الحيوان ٥ : ٨٧

وإذا ما شهرتَه بهر الشَّمْـــس ضياء فلم تكد تستبينُ
يستطير الأبصار كالقبس المشـــعَلِ ما تستقرّ فيه العيونُ
وكأنّ الفِرِنْدَ والجوهر الجا ري على صفحتيه ماء مَعِينُ
ما يبـــالى إذا الضريبة حانت أشمالٌ سطتْ به أم يَمِينُ
وكأنّ المنونَ نِيطتْ إليـــه فهو من كلّ جانبيْه منونُ

فقال له : لك السيف والمِكْتل ، ففرّق ، المِكْتل على الشعراء ، وقال : حرمتَهم بسببي ، وأخذ من المهدىّ فى السيف خمسين ألف دينار .

وممّن أفرط فى وصف قَطْع السّيف النمر بن تولب حين قال :

أبقى الحوادث والأيام من نمرٍ أسباد سيفٍ كريم أثره بادِى
تظلّ تحفر عنه الأرض مندفناً بعد الذّراعين والساقيْن والهادِى

ويروى :

* تظلّ تحفر عنه إن ضربت به *

والأسباد : البقايا ، واحدها سِبْد ، وقال أبو الهول :

حُسام غَدَاة الرَّوْع ماضٍ كأنّهُ مِنَ الله فى قَبْضِ النّفوس دليلُ[1]
كأنّ جنودَ الذرّ كُسِّرْن فوقه قرونُ جراد بينهنّ ذحـــولُ
كأن على إفرنده مَوْجُ لُجّةٍ تقاصرُ فى ضحضاحه وتُطـــولُ

وقال ابن الرومى :

يقول القائلون إذا رَأَوْه لأمرٍ مّا تُغوليت الدُّرُوعُ

والشعر فى وصف السيف كثير مشهور فلذلك اقتصرنا على هذه النبذة .

* * *

قوله : مسهدِف ، أى منتصف ، والهَدَفُ : الغَرَض ، وأراد بالقِرْطاس قطعةً من كاغَد توضع فيها الدرهم . الفنجديهى : القرطاس : دِرْهَمٌ مِن نُحاس ،

(١) ثمار القلوب ٦٢٣ .

وفيه شيء من الفضّة ، يتعاملون به فى الشأم . قذالك : مؤخّر عنقك وهو ما بين نُقْرة القفا إلى الأذن وجمعه قُذُل . ذا ، إشارة إلى الدرهم . نقداً : حاضراً .

أثراً بعد عين . قد تقدّم ، والعين : نفس الشيء ، وقيل : العين المعاينة ، فمعناه لا أترك شيئاً وأنا أعاينه ، وأطلب أثرَه إذا غاب . وقال الفنجديهىّ : سمعت بعضَ الفضلاء بفنجديهَة ، يقول : حكى أنّ رجلاً سُرق منه شيء ، فخرج يطلب السّارق ، فلما ظفر به أخذ يضربه ويشدّ وثاقه ، فقال له أحد أهل البلد : خَلِّ سبيله ، حتى يخرج فإن هنا أثر قدميه ، فضحك الرجل منه وقال : لا أطلب أثراً بعد عين ، فصار مثلا لمن ترك شيئاً حاصلاً ثم تبع أثره بعد فوت عَيْنه .

رضخت : أعطيت . والعين : الدراهم والدنانير . الأخدعان : عِرْقان يقع عليهما المحجمتان ، وقيل : هما فى صفحتى العنق قد خفيا وبُطِنا فلخفائهما يَخْدَعان الحاجم . خَزْن : إمساك وحبس . اغرُب : غبْ . وإلاّ ، معناه وإلاّ صفعتُ عنقك . المَيْن : الكذب . الحرمين : مَكّة والمدينة ، حرم الله تعالى بمكة وحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة . التَّلْعة : مجرى الماء من أعلى الوادى . أنظِرْنى : أخِّرْنى . سَعَتِى : غِناى .

* * *

فقال له الشيخ : وَيْحك ! إن مَثَل الوُعود ، كغَرْسِ العُود ، هو بين أن يُدْرِكه العَطَبُ ، أو يُدْرَكَ منه الرُّطب ، فما يُدْرينى : أيَحْصُلُ مِنْ عُودك جَنَى ، أمْ أَحْصُل منه على ضَنَى ، ثم ما الثِّقَةُ بأنَّكَ حِينَ تَبْتَعِد، ستَفِى بما تعِد ! وقد صار الغدرُ كالتحجيل ، فى حِلْيَةِ هذَا الجيل ، فأرِحْنِى باللهِ من التَّعْذيب ، وارْحَل إلى حيث يَعْوِى الذّيب . فاسْتَوى الغلامُ إليه ، وقد اسْتَوْلى الخجلُ عَلَيْه ، وقال : والله ما يخيسُ بالْعَهْد ، غيرُ

الخسيس الوغد، ولا يَرِدُ غديرَ الغدر، إلّا الوضيعُ القدر؛ ولو عرفتَ مَنْ أنا، لما أسمعتَني الخنا؛ لكنّك جهلتَ فقلت، وحيثُ وجب أن تسجدُ بلت، وما أقبح الغُربةَ والإقلالَ، وأحسنَ قولَ مَنْ قال:

* * *

جَنَى: ما يُجنى منه. ضَنًى: مَرَض. التَّحجيل: بياض فى قوائم الفرس. حِلْيَة: صفة وزينة. الجِيل: أهل العصر. اسْتَوى: اعتدل قائماً. اسْتَوْلَى: غلب عليه الخجل. يخيس: يغدر، وخاس الشيء تغيّر. الوغد: الرَّذْل الساقط الخسيس الدنيء. الخنا: الفُحْش.

* * *

إن الغريبَ الطَّويلَ الذَّيْلِ مُمْتَهَنٌ ... فكيفَ حالُ غريبٍ مالَهُ قوتُ!

لكنّه ما تشينُ الحرَّ مُوجِعَةٌ ... فالمِسْكُ يُسْحَقُ والكافورُ مفتوتُ

وطالما أُصْلِيَ الياقُوتُ جَمْرَ غَضًى ... ثمّ انطفى الجمرُ والياقوتُ ياقوتُ

فقال له الشيخ: يا ويلةَ أبيك، وعولةَ أهليك! أأنت فى موقف فخرٍ يَظْهر، وحَسَبٍ يُشْهَر، أمْ موقف جِلْدٍ يُكْشَط، وقفاً يُشْرَط؛ وهبْ أنَّ لكَ البَيْت، كما ادَّعيت، أيحصلُ بذلك، حَجْمُ قَذَالِك؛ لا والله ولو أنَّ أباك أنَاف، على عَبْد مناف، أو لخالِكَ دَانَ، عَبْدُ المَدان.

* * *

الطويل الذيل: الكثير المال. تَشين: تعيب. أُصْلِي: أدخل النار. الياقوت: حجارة يتزين بها والنار لا تغيره.

ومما جاء فى معنى هذا الشعر:

إن الغريبَ ذليلٌ حيثما سلكا ... لو أنه مُلِّكَ كلَّ الورَى ملكا
إذا تغنَّى حمامُ الأيك فى غُصُنٍ ... حنَّ الغريبُ إلى أوطانه فبكى

آخر :

وإذا حَلَلْتَ بدار قومٍ دارَهُمْ ... فلهم عليك تعزُّز الأوطان
فالشَّمْس تُشْرِق فى مَحِلّة كَبْشِها ... وتكون منحطّاً مع الميزان

وقال الفقيه الحافظ أبو محمد بن حزم :

لا يشمتنْ حاسدٌ إن نكبةٌ عَرَضَتْ ... فالدّهر ليس على حالٍ بمستَرِكِ[1]
فالحرّ كالتِّبر يلقَى تحت منقعةٍ ... طوراً وطوراً يُرَى تاجاً على ملك

وقال البحترىّ فى سعيد وقد حبس :

وما هذه الأيّام إلّا مراحلٌ ... فمِنْ منزلٍ رَحْبٍ ومن منزلٍ ضَنْكِ[2]
وقد هذّبتك النائباتُ وإنّما ... صفا الذهبُ الإبريز قبلك بالسَّبْكِ

وقال أبو بكر بن دريد :

لا تحقرنْ عالماً وأن خَلُقَتْ ... أثوابُه فى عيونِ رامقِهِ[3]
وانظر إليه بعين ذى خَطَرٍ ... مهذّب الرأى فى طرائقِهِ
فالمسك إذْ ما تراه ممتهناً ... بفِهْرِ عطّارِه وساحقِهِ
سوف تراه بعارضَىْ ملكٍ ... وموضع التّاج من مفارقِهِ

وقال ابن شمّاخ :

نوائبُ غالتْنِى فأبدت فَضَائلى ... فكانت وكنتُ النّارَ والعنبرالوَرْدَا

(١) نفح الطيب
(٢) ديوانه ١٥٦٨ وفيه : « إلا منازل »
(٣) ديوانه ٩٨

وعلى لسان عود الطيب :

إنَّ مستّ النّار جسمى أبديتُ طيبَ نسيمِى
كالدّهر إنْ عضّ يوماً أبانَ فَضْلَ كَرِيمِ

وسخط المتوكلّ على عَلِيّ بن الجهْم ، فنفاه إلى خراسان ، وكتب أن يُصْلَب إذا وردها يوماً إلى الليل ، فلمّا وصل إلى الشاذياخ حَبسه طاهر بن عبدالله ، ثم أخرجه فصلبه إلى الليل مجرّداً فقال[1] :

لم يصلبُوا بالشاذياخ عشية الإثنين مسبوقاً ولا مَجْهُولا[2]
نصبوا بحمد الله ملء عيونهمْ شرفاً وملءَ صدورهم تَبْجيلا
ما ازداد إلا رفعة وسعادةً وازدادت الأعداء عنه نكولا
هل كان إلا الليثَ فارق غِيلَه فرأيتَه فى مَحْمَلٍ محمولا
ما عابه أن بُزَّ عنه لباسُه كالسّيف أفضلُ ما يُرَى مسلولا[3]

وقال فى الحبس :

قالت حُبِسْت فقلت ليس بضائرٍ حَبْسِى وأىّ مهنّدٍ لا يُغْمَدُ[4]
أو مَا رأَيت اللّيث يألف غِيلَه كِبْراً وأوْباشُ السّباع تصيّدُ[5]
فالشمس لولا أنها محجوبةٌ عن ناظريك لما أضاء الفرقدُ
والنّار فى أحجارها مخبوءة لا تُصْطَلَى إن لم تُثِرها الأزندُ
والحبس إن لم تَغْشَه لدنيّةٍ شنعاء نعم المنزل المتــوردُ
بيت يُجَدِّد للكريم كرامةً ويُزار فيه ولا يزور ويُحْمَدُ
لو لم يكن فى الحبس إلا أنه لا تستذلك بالحجاب الأعبدُ

(١) ديوانه ١٧١ ، والشاذياخ ، من ضواحى نيسابور
(٢) الديوان : (صبيحة الاثنين)
(٣) ديوانه : « فالسيف »
(٤) ديوانه ٤١ ، ٤٢
(٥) الديوان : « تردد »

أخذ الأحوصَ أحدُ الأمراء بأمر الوليد بن عبد الملك لأنه كان يراود غلمانه ، فضربه مائة سوط وصبّ عليه الزيت ، وأوقفه فى الشمس ، وهو مع ذلك يقول :

ما تعتريني من خطوبٍ مِلّمةٍ إلا تشرّفنى وترفَعُ شانِي[1]
إنّى على ما قدْ علمت مجسَّدٌ أُتمَى على البَغْضاء والشنآن
فإذا تَزُول تزول عن متخمِّطٍ تُخْشَى بوادرُ على الأقران
إنى إذا خفِيَ اللئيمُ وجدتنى كالشَّمْسِ لا تَخْفَى بكلِّ مكان

* * *

قوله : يا ويلة أبيك . الويلة : الفضيحة، والْوَيْل : الحزن . والعَوْلة : البكاء الشديد ، وأَعْوَل يُعوِل إعوالاً ، إذا رفع صوته وصاح . أهليك : جمع أهل . يكشط : يحلق شعره . هب ، أى احسب . وذكر فى الدرة أن خواصّ العراق يقولون : هب أنى فعلت ، وهبه فعل ، كقول أبى دَهْبل[2] :

هَبُونى امرأً منكمْ أضلّ بعيره له ذمّةٌ إنّ الذمام كبيرُ

قال : وهَبْنى ، أى عدّنى واحسبنى ، فكأنّ فيه معنى الأمر من وهب . انتهى ما قاله فى الدرة[3] .

وقال هنا : وهب أن لك . . . البيت ، وبيت القبيلة : أشرف فِخذٍ فيها . أناف : أشرف .

---

(١) ديوانه ٢٠٣ وروايته

ما مِنْ مصيبةِ نكبةٍ أمْسَى بها إلّا تعظّمُنِي وترفــــع شانى

(٢) ط « ذهل » تحريف

(٣) درة الغواص ١٢١ (طبع ليدن)

[شرف عبد مناف]

عبد مناف بن قصيّ ،هو بيت قريش وشريفُها ، وهو جدّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ،واسمه المغيرة ، وكان يقال لعبد مناف : القمر لجماله وبهائه ورفعة منزلته ، وسمِّيَ عبد مناف لأنه شَرُف وعَلاَ ، وأناف على أشراف العرب ، وكانت الرّكاب تَضْرِب إليــه من أطراف الأرض يُتْحِفونه تحفَ الملوك ، فيكرمهم ، وكان عنده لواء نزار ، وقوس إسماعيل ، وسقاية الحاج والمفاتيح . ولما قسم والدُه المجدَ بين أولاده جعل السّقاية والرّياسة لعبد مناف ، والدّار لعبد الدار ، والرفادة لعبد العُزّى ، وجانبي الوادى لعبد بن قصيّ . قال الشاعر :

كانتْ قريشٌ بيْضَةً فتفلَّقتْ فالمحُّ خالِصُه لعبـد مناف[1]

ولما مات قُصَيّ رأس ابنه عبد مناف ، وجلّ قدرُه ، فأتته خُزاعة وبنو الحارث بن كنانة يسألونه الحِلف ليعزُّوا به ، فعقد معهم .

وأمّا شَرَفُ عقبِهِ فلأن منه بنى هاشم ، الذين فيهم النبوّة والخلافة ، ومنه بنو أميّة القادة فى الجاهلية ، وأهل الخلافة فى صدر الإسلام ، وقد قدّمنا فى أخبار الشافعيّ أن عبد مناف ، يجتمع بنو هاشم وبنو أمية فيه ، فلهؤلاء انتهى شرف مُضر .

[ذكر بنى عبد المدان]

وأما بنو عبد المدان فأشراف اليمن ، وبهم يضرب المثل فى الشرف والعزة ، وهو عبد المدان بن الديان بن قَطَن بن زياد بن الحارث بن مالك بن ربيعة بن مالك بن كعب بن الحارث بن كعب بن خالد بن يجيلة بن مذحج .

(١) من مقطوعة فى أمالى المرتضى ٢ : ٢٦٨ ونسبها إلى مطرود بن كعب الخزاعى .

وقال لقيط بن زُرارة :

شربتُ الخمرَ حتى خِلْتُ أنى أبو قابوسَ أو عبدُ للمدان
أمشى فى بنى عُدُس بن زيد رخىَّ البال منطلقَ اللسان

وقال حسان رضى الله عنه :

وقد كنا نقول إذا رأينا لذى جسم يعدّ وذى بيانِ
كأنك أيّها المعطى بيانًا وجسماً من بنى عَبْد المدانِ

وقالوا لحسّان : كنّايا أبا الوليد ، ونحن نطول بأجسامنا على العرب نَرى لأنفسنا بذلك فضلا ، حتى قلت :

دعوا التخاجؤ وامْشُوا مِشْيَةً سُحُجا إنّ الرجال أولو قدّ وتذكيرِ[1]
لا بأس بالقوم من طُولٍ ومن عِظَمٍ جسمُ البغال وأحلام العصافير

فتركتنا لا نرى لأجسامنا فضلا .

وحكى الأصمعىّ : أنه اجتمع يزيد بن عبد المدان وعامر بن الطُّفيل بسوق عُكاظ ، وقدم أميّة بن الأسكر الكنانى ومعه ابنة له ، من أجمل أهل زمانها ، فخطبها يزيد وعامر ، فقالت أمّ كلاب (امرأة أمية) : مَنْ هذان الرجلان ؟ فعرّفها أمية ، فقالتْ : أعرف بنى الديان ولا أعرف عامراً ، قال : هل سمعتِ بمُلاعب الأسنّة ؟ قالت : نعم ، فقال : هذا ابن أخته ، فقال يزيد : يا أمية أنا ابن الديان ، صاحب الكثيب ورئيسُ مَذْحج ومكلّم العُقاب ، ومَنْ كان يصوِّب أصابعَه فتنطُف دماً ، وراحته فتخرج ذهباً ، فقال أميَّة : بخ بخ ، فقال عامر : جدّى الأجذم ، وعمّى الأصم ، وخالى ملاعب الأسنة ، وأبى فارس قرزل ، فقال أمية : بخ بخ ، مرعًى ولا كالسَّعدان ، فأرسلها مثلا ، فقال يزيد : يا عامر ،

(١) ديوانه ٢١٤ . والتخاجؤ : التباطؤ فى المشى . وفى الديوان « إن الرجال ذوو عصب وتذكير »

هل تعلم شاعراً من قومى رحل بمدحةٍ إلى رجل من قومك ؟ قال : لا ، قال : فهل تعلم أن شعراء قومك يرحَلُون بمدائحهم إلى قومى ؟ قال : اللهم نعم ، فنهض يزيد وهو يقول :

أمىّ يا ابنَ الأسكرِ بن مدلجٍ لا تجعلنْ هوزاناً كمذحجِ
لا النبع فى مغرسه كالعَوْسجِ ولا الصريحُ المحضُ كالمُزَجِ

* * *

فلا تضْرِبْ فى حديدٍ بارد ، ولا تطلُبْ ما لستَ له بواجد ، وباهِ إذا باهَيْتَ بموجودِك ؛ لا بُجدودِك ، وبمَحْصُولك ، لا بأُصُولك ، وبصفاتِك ، لا برُفاتِك ، وبأَعْلاَقِك ، لا بأَعْرَاقِك ؛ ولا تُطِعِ الطَّمَعَ فيُذلَّك ، ولا تَتَّبِعِ الْهَوَى فيُضِلَّك ، ولله القائلُ لابنه :

بُنَىَّ استَقِمْ فالعودُ تَنْمِى عروقُه قويماً ويَغْشَاه إذ ما الْتوَى التَّوَى
ولا تُطِعِ الحِرْصَ الْمُذِلَّ وكُنْ فتًى إذا انتهبتْ أحشاؤُه بالطَّوَى طَوَى
وعاصِ الْهَوَى الْمُرْدِى فكم من مُحلِّق
إلى النَّجمْ لما أَنْ أطاع الْهَوَى هَوَى
وأسْعِفْ ذوى الْقُرْبَى فيقبُح أن يُرَى
على مَنْ إلى الحُرِّ اللّباب انْضَوَى ضَوَى .
وحافظ على مَنْ لا يخون إذا نَبَا
زَمَانٌ ومَنْ يَرْعَى إذا ما النَّوَى نَوَى

وإن تَقْتدِرْ فاصفَحْ فلا خيرَ فى امرئٍ
إذا اعتلقَتْ أظفارُه بالشَّـــوَى شَوَى
وإياكَ والشَّكوى فـــــلم تَرَ ذا نُهًى
شَكَا بل أخو الجَهْلِ الّذى ما ارْعَوَى عَوَى

* * *

قوله : لا تضرب فى حديد بارد ، هو مَثَل لمن يحاول الانتفاع بمَنْ ليس عنده نفع ، وقال أبو الشمقمق[1] يهجو سعيدَ بن سَلْم :

هَيهاتَ تضرب فى حديدٍ باردٍ إن كُنْتَ تطمع فى نوال سعيدِ
تاللهِ لو مَلَكَ البحارَ بأسْرِها وأتاه سَلْمٌ فى زمانٍ مُدُودِ
يبغيـــه منها شَرْبةً لطَهوره لأبَى وقال : تَيَمَّماً بصَعِيـــدِ

وكذَب عليه ، كان سعيد بن سلم من أجود الناس . قوله : باهِ ، أى فاخر . موجودك ومحصولك : ما تجدُه من المال ويحْصُل لك . رفاتك : عِظَام أجدادك البالية . الأعلاق : جمع عِلْق ، وهو النَّفيس الرفيع من الذَّخائر . أعراقك : أصولك . قوله : ولا تطع الطَّمع فيذلَّك ، ومن دعاء النبى صلى الله عليه وسلم : « اللَّهُمَّ إنى أعوذ بك من طمعٍ حيثُ لا طَمع ، وأعوذ بك من طَمعٍ يَهْدى إلى الطَّبَع » ، وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « خيـــار المؤمنين القانع ، وشِرارهم الطامع » . وقال الحَسَنُ البَصْرِىّ لبعض ولد علىّ رضى الله عنهما : ما مِلاكُ الدِّين ؟ قال : الورع ، قال : ما آفتُه ؟ قال : الطمَع . قوله : ولاَ تتَّبع الْهَوَى فيضلَّك ، ابنُ عباس رضى الله عنهما ، قال صلى الله عليه وسلم : « ثلاثٌ مهلكات ، شُحٌّ مُطاع ، وهوًى متَّبع ، وعجبُ كلّ ذى رأى برأيه » . وقال صلى الله عليه وسلم : « إنّ أخوَف ما أخاف على أمتى الهوى وطول الأمل ، أمَّا الهوى فيصدّ عن الحق ، وأما طول الأمل فيُنسى الآخرة » . وقال بعضُهم:

(١) هو أبو محمد مروان بن محمد ، وأبو الشمقمق لقبـه والأبيات فى ديوانه ١٣٤ (شعراء عباسيون) .

أفضل النَّاس مَنْ عصى هواه ، وأفضلُ منه مَنْ رَفَض دنياه . تنمى : تزيد . التوى : اعوجّ . التَّوَى : الهلاك . القويم : المعتدل . التهبت : اشتعلت . الطَّوى : الجوع . طَوَى ، أى طوى عليه ضلوعَه وستره . وقال أبو فراس :

لا أرتضى وُدًّا إذا هو لم يَدُمْ ... عند الجفاء وقلة الإنصافِ[1]
تَعِسَ الحريصُ وقلّ ما يأتى به ... عِوَضاً من الإلحاح والإلحافِ
إنّ الغنىّ هو الغنىُّ بنفسِهِ ... ولوانه عارى المناكِبِ حافِي
ما كلُّ ما فوقَ البَسيطة كافياً ... فإذا قَنَعْتَ فكلُّ شىء كافِي
ويعافُ لى طمعَ الحريص فتُوّتى ... ومُرُوءتى وقَناعتى وَعفافِي
شِيَمٌ عُرِفْتُ بهنّ مذ أنا يافعٌ ... ولقد عُرِفتُ بمثلها أسلافِي

قوله : المردى ، أى المهلك . المحلِّق : الطائر يستديرُ فى طَيَرانه . هَوَى : سقط . أسْعِف : اقْضِ حوائجهم . اللُّباب : الخالص . الضوى ، انْقَطَع إلى جودك وتعلّق به . نبا : ارتفع ولم يوافق . يَرْعَى : يحفظ . النّوى : البعد . نَوَى : أراده وقَصده ، وقد قالوا : خيرُ الإخوان ، مَنْ أقبل عليك إذا أدْبَرَ الزمان . الشَّوَى : القوائم ، ويقال لجلدة الرأس : شوًى . وقوله : شَوَى ، أى صنع شواء وأولاها النار . يقول : مَنِ اعتذر إليك من الإخوان فاعذِرْه ، ولا تكن ممّن إذا وقع على ذنبٍ لصاحبه أخَذه به ، ونزع جلدةَ رأسِه فشوَاها .

[ما جاء فى قبول الأعذار]

وقال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ لم يقبل من متنصِّلٍ عذراً ، صادقاً كان أو كاذباً ، لم يَرِدْ علىّ الحوض » .

وقالوا : المعترف بالذنب كمن لا ذنب له .

---

(١) ديوانه ٨١

واعتذر رجلٌ إلى إبراهيم بن المهدىّ ، فقال : قد أغناك الله بالعذر عن الاعتذار، وأغنانا بحسن النية عن سوء الظن .

وقال الحسن بن وهب :

مَا أَحْسَنَ الْعَفْوَ من الْقادِرِ ... لا سيَّما عمن غير ذى ناصرِ[1]

إن كان لى ذنبٌ ولا ذنبَ لى ... فماله غيرُك من غافرِ

أعوذُ بالوُدّ الذى بيننَا ... أن تفسد الأوّل بالآخرِ

وقالوا : ليس من العَدْل ، سُرْعة العذْل .

وقال آخر :

اقْبَلْ معاذيرَ من وافاك معتذِراً ... أبرَّ فيما أتى من ذاك أو فَجَرَا[2]

فقد أطاعك مَنْ يُرْضِيك ظاهرهُ ... وقد أجلَّك مَنْ يَعْصِيك مستترَا

آخر :

وهَبْنى مسيئاً كالذى قلتَ ظالماً ... فعفواً جميلاً كى يكون لك الفضلُ[3]

فإن لم أكن للعفو عندك للَّذى ... أتيتُ به أهلاً فأنت له أهلُ

الأحنف : ربَّ ملومٍ لا ذنبَ له .

آخر :

* لعل له عذراً وأنت تلومُ *

آخر :

إذا اعتذر الجانى محَا العذرُ ذنبَه ... وكلّ امرئٍ لا يقبل العذرَ مذْنبُ[4]

---

(١) العقد ٢ : ١٤٢ (٢) العقد ٢ : ١٤٢

(٣) العقد ٢ : ١٤٣ (٤) العقد ٢ : ١٤٣

وقال محمد بن سليم لابن السمّاك : بلغنى عنك شىء كرهتُه ، فقال : إذا لا أبالى ، قال : لم ؟ قال : لأنه إن كان حقًّا غفرتَه ، وإن كان باطلًا لم تقبَله .

وقالوا فى ترك الأعتذار :

إذا كان وجه العذر ليس بِبَيِّنٍ فإنّ اطّراحَ العذر خيراً من العُذْرِ[1]

قوله : الشكوى ، أى المشتكَى إلى الناس بالضر . نُهَى : عقل . ارعوى : رجع . وارْعَوَى عن القبيح : كفّ عنه وحَسُن رجوعه ونزوعُه عنه من الرِّعوى ، وهى حسن المراجعة والنزوع عن الجهل .

الفراء وابن سيده : عوَى الفصيلُ والكلبُ ، إذا صاح فمدّ صوته ، قال الشاعر :

بها الذّئبُ محزوناً كأنّ عُواءه عُواء فصيلٍ آخر الليل مُحْتَلُ[2]

المحتل : السيىء الغذاء[3] ، وإذا دعا الرّجُل النّاس إلى الفتنة فقد عوَى واسْتَعْوَى ، وسمعتُ عَوَّة القوم ، أى أصواتهم وجلبَتهم ، قاله الأصمعىّ وأبو زيد : بل أخو الجهل الّذى عَوَى بالشكاية وقت ارعوائه أى رجوعه عنك ، والمعنى كلما غاب عنك : تشكّى ، وما مع الفعل مصدرية وظرف الزمان محذوف ، أى وقت ارعوائه كقوله تعالى : ﴿ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ والأَرْضُ ﴾ أى مدة دوامهما ، يريد أن العاقل يحتمل ضرّ الزمان ولا يشتكى والجاهل الّذى متى رجع عن التشكّى لم يرجع رجوعاً حسناً ، بل يَعْوى بالتّشكى عُواء الذئب .

* * *

فقال الغلام للنّظارة : يا لَلْعجيبة ، والطرفة الغريبة ! أنفٌ فى السّماء ، واستٌ فى الماء ، ولفظٌ كالصّهباء ، وفِعْلٌ كالْحِصْبَاء . ثمّ أقبل على

(١) لابن عبد ربه ، العقد ٢ : ١٤٣

(٢) اللسان (حتل) وفى ط : (عتل) تحريف ، والمحتل : السيىء الغذاء

(٣) ط : (الغدار) تحريف

الشَّيْخ بلسانٍ سَليط ، وغيظٍ مُسْتَشِيط ، وقال : أفٍّ لك مِنْ صوّاغٍ باللّسان ، رَوَّاغٍ عن الإحسان : تأمرُ بالبرّ ، وتعُقُّ عُقوق الهِرّ ، فإنْ يكنْ سببُ تعنّتك ، نَفاقَ صَنْعَتك ، فرَماها اللهُ بالكَساد ، وإفْسادِ الحُسّاد ؛ حتَّى تُرَى أفْرَغَ من حجّامِ سَابَاط ، وأضْيقَ رِزْقاً مِنْ سُمِّ الخياط. فقال له الشيخ : بلْ سلّطَ اللهُ عليك بَثْرَ الْفَم ، وتَبْشِغَ الدّم ؛ حتَّى تُلْجأ إلى حجّام عظيمِ الاشْتِطاط ، ثقيلِ الاشتراط ، كَلِيلِ الْمِشْرَاط ، كثيرِ المُخَاط والضُّراط .

* * *

قوله : الطُّرْفَة الْغريبة ، أى التى لم يُرَ مثلُها . الصَّبْهَاء : الخمر . الحصْباء : الحجارة . سليط ، أى متساط . مستشيط : منتشر فى الشرّ ملتهب فى الغضب . صوّاغ : كذّاب ، وصاغ الكذب : صنعه . راغ : مال إليه من حيث لا يعلم ، وراغ إلى أهله : رجع فى إخفاء . روّاغ : ميّال وفرّار فى خُفْية . تعقّ : تقطع . وعقوق الهرة ، أنّها تأكل أولادها .

وحكى الأصمعى فى كتاب « أفعل من كذا » ، يقال : أعقّ من ضَبّ ، قال : أرادوا ضَبَّة ، فكثر الكلام بها فقالوا : ضبّ ، وعقوقها أنها تأكل أولادها ، وذلك أن الضّبّة ، إذا باضتْ حَرَسَتْ بيضتَها من كلّ ما قدرتْ عليه من وَرَلٍ وحيّة وغير ذلك ، فإذا خرجتْ أولادُها من بَيْضتها ظنتها شيئاً يريدُ بيضَها ، فوثبت عليه تقتله ، فلا ينجو منها إلا الشديد . قال : وهذا موضوع قد وضعته العرب فى موضعه ، وأتتْ بعلّته ، ثم جاءت إلى ما هو فى العقوق مثل الضّبّة ، فضربت به المثل على الضدّ ، فقالوا : أبرُّ من هِرّة ، وهى أيضاً تأكل أولادها ، فحين سُئِلوا عن الفرق وجّهُوا أكلَ الهرة أولادها إلى شدة الحبّ ، فلم يأتوا بحجّة مقنعة . وقال الشاعر :

أما تَرَى الدَّهْرَ وهَذَا الْوَرَى كهرّة تأكل أولادَها

واخْتُصِم إلى شُرَيح ، فى ولد هِرّة ، فقال شُرَيح : ألقه مع هده ، فإن هى قرّتْ ودَرَّت واسبطرّت ، فهو لها ، وإن هى هَرَّتْ وفَرَّتْ واقشعرّتْ ، فليس لها . اسبطرّت : اضطجعت وهرّت كهرت ، من هَرِير الكلب ، واقشعرّ الجلد : قامت شُعوره .

قوله : تعنتك : طلب مشقّتك ، والتعنّت : طلب الزّلّة ، وتعنّته أدخل عليه الأذى إذا سأله عن شىء ، أراد به اللّبْس والمشقّة عليه . سمّ الخياط : ثُقْب الإبرة . بَثَر : خرّاج صغار ، ويقال بَثَر الجرح ، إذا خرجت به أورام صغار فيزيد به سيلان الدم عن الأكل وغيره . تبثّغ : هَيَجان وتَبَيَّغ دمُه : هاج عليه . تاجأ : تحوج . الاشتطاط : مجاوزة القدْر . كَلِيل : حافٍ .

* * *

قَالَ : فلمّا تبيّن الفتى أنه يَشْكو إلى غيرِ مُصمَّت ، ويُراوِدُ اسْتِفْتَاحَ بابٍ مُصْمَتٍ ، أضْرَبَ عن رَجْعِ الْكلامِ . واحْتَفَزَ لِلْقِيام ، وَعَلِمَ الشيخ أنه قد أَلَامَ ، بِمَا أَسْمَعَ الْغُلام ، فجنح إلى سِلْمِه ، وبدَل أنْ يُذْعِنَ لِحُكْمِه ، وَلَا يبْغِي أَجْراً على حَجْمِهِ ، وأبَى الْغُلامُ إلَّا المشْىَ بِدَائِهِ ، والهربَ مِنْ لِقَائِهِ ، وَمَا زَالَا فِي حِجَاجٍ وَسِبَابٍ ، ولِزَازٍ وجِذَابٍ ، إِلَى أَنْ ضَجَّ الْفَتَى من الشِّقَاقِ ، وتَلَا رُدْنُه سُورَةَ الانْشِقاق ، فأعْوَلَ حينئذٍ لِوِفَارَةِ خُسْرِهِ ، وانْعِطَاطِ عِرْضِهِ وطِمْرِهِ . وأَخَذَ الشَّيْخُ يَعْتَذِرُ من فَرَطَاتِهِ ، ويُبَيِّضُ من عَبَراته . وهوَ لا يُصْغِي إلى اعْتِذَارِهِ ، ولا يُقَصِّرُ عن اسْتِعْبَارِهِ ، إلى أن قالَ لَهُ : فَدَاكَ عمّك ، وعَدَاكَ ما يَغُمُّك ،

أما تسأم الإعْوَال ، أما تعرفُ الاحْتِمَالَ ، أما سَمِعْتَ بمنْ أَقَالَ ، وأَخَذَ بِقَوْلِ مَنْ قَالَ :

أَخْمِدْ بِحِلْمِكَ ما يُذْكِيه ذُو سَفَـــهٍ
مِنْ نَارِ غَيْظِكَ واصْفَحْ إنْ جَـــنَى جَانِي
فالحِلْمُ أفضلُ ما ازْدَانَ اللَّبيبُ بِهِ والأَخْذُ بالعفو أَحْلَى ما جَنَى جَانِي

* * *

يُراود : يُعالج . مصمَّت: مغلق . احتفز : تهيّأ وتشمّر . ألام : أتى بما يلام عليه. قال الشاعر:

* ومنْ يَخْذُلْ أخاه فقَدْ ألاما *

جَنَحَ : مال . سِلْمه : صلحه . بذل أن يذعن ، أى أعطى الانقياد من نفسه . يبغى أجراً : يطلب أجرة . فى حِجاج وسِباب ، أى فى لجة وشتم . لزاز : ملازمة للخصومة . وخصم لزّاز ملزّ ، أى لا يفارق الخصومة . جذاب : مضاربة وجذب كلّ واحد منهما بثوب صاحبه . ضجّ : صاح . وتلاردُنه ، أى قرأ كمه ، وجعل صوب التّخريق كأنه قراءة . أعول : بكى . وفارة خسره ، أى كمل خسرانه . انعطاط عِرْضِه وطِمْره ، أى تمزيق عِرْضه بالشّتم ، وثوبه بالتخريق ، والطِّمر : الثوب الخلَق . فَرَطاته : بوادره ، وما سبق من إذايته . يغيّض : يذهب وينقص . عبراته : دموعه . يُصغى : يستمع . يقصّر : يكفّ . استعباره : بكاؤه . عَدَاك : تجاوزك . يغمّك : يغطّى قلبَك بالهمّ . تسأم : تملّ . الإعوال : البكاء . الاحتمال : التسامح والصّبر على الأذيّة . أقال : غَفَر الذنب . أُخمِدْ : أطفىء وسكّن . يذكيه : يوقده . سَفَه : جهـل . اصفح : أظهر كَرَمك . جَنَى : أوقع بك جناية . والجانى : فاعلُها . الحلم : العقل والصّبْر على المضرّات . ازدان :

افتعل من الزَّيْن ، أى تزيّن به . اللبيب : العاقل . العفو : غفر الذنب . جَنَى : قطف الثمر . وهذان البيتان من بدائع مزدوجاته التى نبّهنا على أنها من فائق شعره ، وسبقه سابق البربرىّ إلى معناها بقوله :

لا تُظْهِرَنّ لذِى جهلٍ معاتبةً ... فربّما هَيّجتْ بالشىء أشياء
فالماء يخمد حرّ النار يُطفئُها ... وليس للجهل غير الحلم إطفاء
تَرَى السَّفِيه له عن كلّ محكمةٍ ... زيغ ، وفيه إلى التسفّه إصغاء

وقال أبو فراس :

ما كنتُ مذ كنتُ إلّا طوع إخوانى ... ليست إمؤاخذةُ الأخوان مِن شَانِى[1]
يجنى الصَّديقُ فأستحلى جنايَتَهُ ... حتى أدلّ على عفوى وإحسانى
ويُقبِل الذنب ذنباً حين يعرفُنِى ... عمداً فأتبع غفرانًا بغُفْرَانِ
يجنى علىّ فأعفو صافحاً أبدا ... لا شىء أحسنُ من حانٍ على جانى

وذكر الحريرى هذين البيتين والمقطوعة قبلهما ، وجنّس فيهما بين لفظ القافية واللفظ قبله .

ومما جاء من ذلك وهو أضبط مما ذكر قول الشاعر :

قدِّم لنفسك زاداً ... وأنت مالكُ مالِكْ
من قبل أن تتفانى ... ولونُ حالِك حالِكْ
ولستَ تعلم يومًا ... أىّ المسالك سالِكْ
إمّا لجنّة عدنٍ ... أو فى المهالك هالِكْ

وقال آخر :

مالك من مالك إلّا الذى ... قدَّمْتَ فابذُلْ طائعًا مالَكَا
تقول أعمالى ولو فتّشوا ... وجدت أعمالك تُحْمَى لَكَا

(١) ديوانه ١١٤

وقالت للمعتمد جارية له : لقد هُنَّا هنا ، فقال :

قالت لقد هَنَّا هَنَا مولاى أين جاهُنَا
قلت لها إلى هنا صيَّرنا إلا هُنَا

* * *

فقال له الغلام : أما إنّك لَوْ ظَهَرْتَ عَلَى عَيْشِى المُنكَدِرِ ، لَعَذَرْتَ فى دَمْعِى المُنْهَمِرِ ، ولكن هانَ على الأَمْلَس ما لاقَى الدَّبِر . ثمَّ كأنه نَزَع إلى الاسْتِحْيَاء ، فَأَقْلَعَ عن البُكَاء ، وفاءَ إلى الارْعِوَاء ، وقال للشيخ : قَدْ صِرْتَ إلى اشْتَهَيْتَ ، فارْقَعْ مَا أَوْهَيْتَ ، فقال : هَيْهَات شغلتْ شِعابَى جَدْوَاىَ ، فشِمْ بَارِقَ سِوَاىَ .

ثمَّ إنَّه نَهَضَ يَسْتَقْرِى الصُّفُوفَ ، وَيَسْتَجْدِى الْوُقُوفُ ، ويُنْشد فى ضِمْن ما هُوَ يَطُوف :

أُقْسِمُ بالْبَيْتِ الحَرَامِ الَّذِى تَهْوِى إليه الزُّمَرُ المحرِمَهْ
لَوْ أَنَّ عِنْدِى قُوتَ يَوْمٍ لَمَا مَسَّتْ يَدِى المِشْرَاط وَالمِحْجَمَهْ
ولا ارتضتْ نفسى الّتى لَمْ تَزَلْ تَسْمو إلى المجدِ بهذِى السِّمَهْ
ولا اشْتَكَى هَذَا الْفَتَى غِلْظَةً منّى ولَا شَاكَتْهُ مِنِّى شَمَهْ
لكنْ صُروفُ الدَّهْرِ غَادَرْنَنِي كالخابطِ فى اللَّيْلَةِ الْمُظْلِمَهْ
واضْطرنى الْفَقْرُ إلى مَوْقفٍ من دونِهِ خَوْضُ اللَّظَى المُضْرَمَهْ
فهل فَتًى تدركهُ رقّةٌ علىّ أو تَعْطِفُهُ مَرْحَمَهْ !

* * *

قوله : المنكدر ، أى المتغيّر ، والكَدْرَة ضدّ الصفاء . المنهمِر : السائل . أقلع : ارتفع وزالَ . فاء : رجع . الارعواء : الاستحياء والرّجوع الحسن . أوهيت : أفسدت . شِمْ : انظر . يَسْتَقْرِى : يتتبع . يستجدى : يطلب الجَدَا ، وهو العطيّة . فى ضمن : فى أثناء وفى خلال . تهوى : تُسْرِع المشى وتتساقط إليه . الزُّمَر : الجماعات . المحرِمة : الداخلة فى الحرَم . تسمو : ترتفع . المجد : الشرف . السِّمة : العلامة . غلظة : جفاء . شاكته : ضربته . حُمَة : شوكة العقرب التى تَلْسَع بها ، والحُمة : السّمّ ، فسمى ما يخرج عنه السّمّ باسمه . صروف : نوائب . غادرتنى : تركتنى . خابط : ماش على جهالة . اضطرنى : ألجانى . خوض اللّظَى : دخول النار . المُضْرَمة : الموقدة . رقّة : شفقة . تَعْطِفه : تليّنه . مرحمة : رحمة .

* * *

قال الحارث بن همام : فكنت أوّلَ من أَوَى لبلْوَاه ، ورقّ لشكواه ، فنفحتُه بدرهمين ، وقلت : لا كَانَا ولو كان ذامِيْن ، فابتهج بيا كُورَة جَنَاه وتفاءل بهما لِغِنَاه ، ولم تزل الدّراهم تنهال عليه ، وَتَنْثال لَدَيْه ؛ حتى آل ذَا عيشةٍ خَضْرَاء ، وحقيبةٍ بَجْرَاء ، فازدهاه الفرحُ عند ذلك ، وهنّأ نفسَه بما هنالك ، وقال للغلام : هـذا رَيْعٌ أنْتَ بَذْرُه ، وحَلَبٌ لك شَطْرُه ؛ فهَلُمّ لنَقْتَسِم ، ولا نَحْتَشِم ، فَتَقَاسَمَاهُ بينهما شِقَّ الأَبْلمة ، ونَهَضَا مُتَّفِقَي الكلمة . ولمّا انْتَظَمَ بَيْنَهُما عَقْد الاصْطِلاَح ، وهَمَّ الشيخ بالرّواح ، قلت له : قد تَبَوَّغَ دَمِى ، ونَقَلْتُ إليكَ قَدَمِى ، فهل لك أن تَحْجُمَنِى ، وتُكَفِكِفَ ما دَهَمَنِى ، فصوَّب طَرْفَهُ فىّ وصعّد ، ثم ازْدَلَف إلىّ وأنشد :

* * *

أوى : أشفق . نَفَحْتُه : رميته ونبذته . ذامين : صاحب كذب . ابتهج : فرح . باكورة : أول ما يَطيب من الشجر ، فجعل الدرهمين باكورة لأنهما أول ما أخذ . تفاءل : جعلهما فألا ، أى لمّا كان أوّل ما حَصَل بأيديهما درهمين ، استكثرهما فرَجا أن تتمشى عطايا الحاضرين على هذا المثال ، وقد كررت ذِكْرَ الفأل .

[مما قيل فى الفأل]

ونذكر هنا منه فصلا على ما أجرينا العادة فى غيره .

كان صلى الله عليه وسلم يكره الطِّيَرة ويُعْجِبه الفأل الحسن .

ولما قدم المدينَة نزل على رجلٍ من الأنصار ، فصاح الرجل بغلمانه : يا سالم يا يسار ، فقال صلى الله عليه وسلم : سَلِمتْ لنا الدار فى يسر .

وقيل لرجلٍ من العرب : ما لكم تسمُّون أبناءكم بأسماء السباع والكلاب ، وتسمون مواليكم بأسماء حسان ، مثل عطاء ونجاح ؟ فقال : لأنّا أعددنا أبناءنا لأعدائنا ، ومواليَنا لأنفسنا .

وسأل عمرُ رضى الله عنه رجلاً عن اسمه واسم أبيه ، فقال : ظالم بن سرّاق ، قال : تظلم أنت ويسرق أبوك !

وجاءه رجل فقال له : ما اسمك ؟ قال : جمرة ، قال : ابن من ؟ قال : ابن شهاب ، قال : ممَّن ؟ قال : من الحرّقة ، قال : وأيّا تسكن ؟ قال : بحرّة النار . قال : بأيِّها ؟ قال : بذات لظًى ، قال : أدرِكْ أهلك ، فقد احترقوا ، فرجع فوجدهم قد احترقوا ، فكان كما قال .

الفنجديهى بسنده ، حدثنى أحمد بن علىّ ، حدثنى أبو مسعود ، قال : قال لى أبو داود السِّنْجى : ما اسمك ؟ قلت : سعد ، قال : ابن من ؟ قلت :

ابن مسعدة ، قال : أبو من ؟ قلت : أبو مسعود ، قال لى : مسألتك مثل أعرابى لقى آخر ، فقال : ما اسمك ؟ قال : فَيْض ، فقال : ابن من ؟ قال : ابن الفرات ، قال : أبو مَنْ ؟ قال : أبو بحر ، قال : ليس لنا أن نكلّمك إلا فى زَوْرق .

وقال علىّ بن الجهم : دخلتُ يوماً على المتوكل ، وهو جالس فى صحن داره ، وبيده غصن آس ، وهو يتمثل بهذا الشعر :

بالشَّطِّ لى سَكَنٌ أفــديه مَنْ سَكَنِ
أهدى من الآس لى غصنين فى غُصُنِ[1]

فقلت إذ نُظِمَا إلفــيْن وانتسقا سقياً ورعياً لفـألٍ منكما حَسَنِ
فالآسُ لا شكَّ آسٍ من تشوّقنا شافٍ وآسٍ تبقّى لِى عَلَى الزَّمَنِ
بشَّرتُمانى بأسبابٍ ستجمعُنا إن شاء ربِّى وَمَهْمَا يَقْضِه يَكُنِ

ثم قال لى — وكدتُ أنشقُّ حسداً : لمن هذا الشعر يا علىّ ؟ فقلت : للحسين بن الضحّاك يا سيِّدى ، فقال : هو والله عندى أشعرُهم وأحسنُهم مذهباً وأظرفهم نمطاً ، فقلت : وقد زاد غيظى : فى هذا النمط يا سيدى ؟ قال : وفى غيره ، وإنْ رغِم أنفك ومتَّ حسداً ، وأردت إنشاده قصيدةً ، فقلت : إنى لا أنتفع بها مع ما جرى ، فأخّرتها إلى وقت آخر .

قوله : تنهال ، أى تنصَبُّ متفرقة . آلَ : رجع . خضراء : ناعمة لكثرة الرَزق . حقيبة بجراء ، أى وعاء ممتلىء ، والأبجر : الذى خرجتْ سُرَّته . ازدهاه : هزَّه وأعجبه . الرّيع : الزيادة والفضل والبَذْر : ما يُزْرَع من الحبوب . حَلَب : لبن . شطره : نصفه . نحتشم : نستحى أو نغضب . الالية : الدّومة تشق ورقتها فتخرج أبداً معتدلة . تكفكف : تدفع وتكفّ . دهمنى : أصابنى . ازدلف : قَرُب .

* * *

(١) ديوان الحسين بن الضحاك ١١٥

كَيْفَ رأيتَ خُدْعَتِي وخَتْلِي ... وما جَرَى بيني وبين سَخْلِي
حتّى انثنيتُ فائزاً بالخِصْلِ ... أرْعَى رياضَ الخِصْبِ بَعْدَ المحْلِ
بالله يا مهجة قلبي قُلْ لي ... هل أبصرتْ عيناك قطّ مثلي
يفتَحُ بالرُّقيةِ كلَّ قُفْلِ ... ويَسْتَبِي بالسِّحْرِ كلَّ عَقْلِي
ويَعْجِنُ الجِدَّ بماء الهزلِ ... إن يكن الإسكندريّ قَبْلِي
فالطَّلُّ قَدْ يَبْدُو أمام الوبْلِ ... والفضلُ للوابل لا لِلطَّلِّ

قال : فَنَبَّهَتْنِي أُرْجُوزتُه عَلَيْه ، وأَرَتْنِي أنَّه شيخُنا المشارُ إليه ، فقَرّعتُه على الابْتِذال ، والالتحاقِ بالأَرْذَال ، فأعْرَض عَمَّا سَمِع ، ولم يُبَلْ بما قُرِع ، وقال : كلُّ الحِذاء يَحْتَذِى الحافِيَ الْوَقِع . ثم قاصانى مُقاصَة المُهَان ، وانطلقَ هُوَ وابنُه كفرسَىْ رِهَان .

* * *

خَتْلِي : مكرى . سخْلِي : ولدى . الخصْل : الغَلَب فى القمار ، وفى مسابقة الخيل ، وفى مراماة السهام . يستبى : يأخذ ويسبى ، وقد تقدّم فى شرح الصدر التنبيه على هـذا الموضع . الطّلّ : أضعف المطر . والوبل : أشدّه . قرّعته : أقلقته بكثرة اللوم ، وبأَخْذِى له بلسانى . الابتذال : امْتهان نفسه فى الصّنعة المهينة . الأرْذَال : الأدنياء ، فأَراد عنّفته ولمْته أشدّ اللوم على حِرْفَة الحجامة ، فإنّها صَنْعَةُ أرذال الناس وسِفْلَتُهم .

ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « العرب بعضُها لبعض أكفاء ، قبيلة لقبيلة ، وحىّ لحىّ ، ورجل لرجل . والموالى أكفاء إلا حائكاً أو حجّاماً » .

وقال علىّ بن الحسين : أربعة أعمالٍ كانت فى سُفْلِ بنى إسرائيل ، وصارت فى سُفْلِ العبيد وستكون فى سُفْلِ الأحرار : الحياكة ، والحجامة ، والدِّباغة والكِناسة .

رفاعة بن موسى : سمعت الصادق يقول : ستٌّ لا يُنْجِبُون : الملاّح ، والمكارى ، والحمامى ، والحجام ، والبيطار ، والحائك .

وممّن شهر من الأدباء بصنعة مهينة نصر بن محمد الخابزرزىّ ، كانتْ صنعتُه خَبْز خُبْز الأرزّ فى دكانه بمَرْبَد البصرة ، فكان ينشد أشعاره على الغزل ، والنّاس يزدحمون عليه ، وأحداثُ البصرة يتنافسون فى ميله إليهم .

وكان ابن لَنْكك على ارتفاع قَدْره ينتاب دكانه ، فحضره يوماً وعليه ثياب بِيض فاخرة ، فتأذّى بالدكان من الدخان وسوء أثره على ثيابه ، فانصرف وكتب إليه :

لنصرٍ فى فؤادى فَرْطُ حبٍّ ... يُنيف به على كلِّ الصِّحَاب[1]
أتينـــاه فبخّرَنا بخـوراً ... من السَّعف المدخّن بالتهاب
فقمت مبادراً وحسبتُ نصراً ... يريد بذاكَ طَرْدِى أوْ ذَهابى
وقال: متى أراك أبا حسينٍ؟ ... فقلت له إذا اتسخت ثيابى

فلما قُرِئت عليه أَمْلَى على مَنْ قرأها ، وكتب على ظاهرها :

مَنَحْتُ أبا الحسين صَميمَ وُدّى ... فخاطبنى بألفـاظٍ عِذَابِ
أتى وثيابُه كالشيب لوناً[2] ... فعُدْنَ له كريْعَان[3] الشَّبابِ
وبغضى للمشيب أعدّ عندى ... سواداً لونُه لون الخِضابِ
فإن يكن المعطّر فيـــه فخراً ... فلمْ يَكُنِ الوصىّ أبا ترابِ

(١) يتيمة الدهر ٢ : ٢٣٧ ، ٢٣٧
(٢) كذا فى اليتيمة ، وفى ط : « كبياض شيب »
(٣) ط : « كغربان » .

ومن شعره :

خليليّ هل أبصرتُما أو سَمِعْتُما ... بأحْسَنَ مِنْ مَوْلًى تمشّى إلى العَبْدِ

أتى زائراً من غير وعدٍ وقال لى : ... أصونك عن تعذيب قلبك بالوعْدِ

فما زالَ نجمُ الكأس بينى وبينه ... يدور بأفلاك السعادة والسَّعْدِ

وله :

وَرْدُ الخدود ورُمّان النهود وأغـ ... ـصان القدودِ تَصيدُ السّادَةَ الصِّيدا

مَنْ لى إذا مارأيتالخَصْرَمختصراً ... والرّدف مرتدفاً والقَدَّ مقدُودا

وكان يحيى السَّرَقُسْطِى أديباً فرجع إلى الجزّارين ، فأمر الحاجب بن هود أبا الفضل بن حُميد أن يوبّخه على ذلك فكتب إليه :

تركتَ الشِّعْر من عدم الإصابَهْ ... وملتَ إلى الجزارة والقصابَهْ

فأجابه يحيى :

تَعيبُ علىّ مألوفَ القِصابَهْ ... ومَنْ لم يدرِ قَدْرَ الشيء عَابَهْ

ولو أحكمتَ منها بعض فنّ ... لما استبْدَلْتَ عنها بالحجابَهْ

وإنّكَ لوْ طَلَعْتَ علىّ يوماً ... وحَوْلِى مِنْ بنى كلْبٍ عِصَابَهْ

لهالك ما رأيتَ وقلتَ هذا ... هزبرٌ صيّر الأوضام غابَهْ

فتكْنَا فى بنى العَنَزِىّ فتكاً ... أقرَّ الذُّعْرَ فيهم والمهابَهْ

ولم نُقْلِعْ عن الثَّوْرِىّ حتَّى ... مَزَجْنَا بالدَّمِ القانِى لُعَابَهْ

ومَنْ يعتزّ منهمْ بامتناعٍ ... فإنَّ إلى صوَارِمنَا إيابَهْ

ويبرز واحدٌ منّا لألْفٍ ... فيغلبُهم وتلك من الغرابَهْ

وحَقِّكَ ماتركتُ الشِّعْرَ حَتَّى ... رأيتُ البخَلَ قدأمْضَى ثيَابَهْ

وحتَّى زُرْتُ مشتاقاً حميمى ... فأبْدَى لى التجهّمَ والكآبَهْ

وظنَّ زيارتى لطلاب شيء ... فأقصانى وأغلظ لى حجابَهْ

قوله : ولم يُبَلْ : أصله يبالى ، حذفت ياؤه للجزم ، فصار يبال ، فلما كثر استعماله صار بمنزلة ما لم يحذف منه شيء فقدّروا تكريرَ الجازم عليه مرة أخرى فحذفتْ حركةُ اللّام للجزم ، فسكنت اللّام ، وقبلها ألف ساكنة فحذفتْ الألف لالتقاء الساكنين .

ولأبى علىّ فى هذه المسألة عبارة استوحش منها أكثر العلماء ، فمن مخطّىء ومن مُصوّب ، وتحقيقها غائب إلا عَنْ أهل التحقيق ، وقد أوضحناها فى شرحنا لكتاب الإيضاح ، والإكثارُ من مسائل الإعراب فى كتب الآداب مما يُسْتَبْرد ويعاب .

أعرض ، أى نحىّ وجهَه لجهة . قاصانى : فارقنى ، وقال الفرّاء : كل شيء أبنته من شيء فقد قَصّيْته منه ، وتقصّى الرجل من الرجل : بان عنه ، وكلّ رجلٍ بايَنَ شيئاً فقد تقصّى عنه . الليث رحمه الله : كلّ شيء لازم خلّصته فقد تقصّى ، وتقصّيْت من الديون : خرجتُ منها . فرسى رهان : هما اللذان يجريان ويُجْعل معهما جُعْل ، فمن سبق أخذه .

ومما أستحسن من أبيات اللغز فى هذا الباب قولهم فى المشارط :

وخضراء لامن بنات الهديلِ يُلَفَّف بالسَّير مِنْقَـــارُها
كأنّ مشق عيون القطا إذا هنّ هوَّمن آثارُها

آخر :

وكان جَـدّى هراش فى كتابته من أكتب الناس يأهرون بالألِف

يعنى آثار التشريط تبقى كصور الألفات .

وقال آخر :

يابنَ مَنْ يكتب فى الأرْ قاب من غير دَوَاةِ
لم يكن يكتب فيها غير خطّ الألِفات

وقال ابن كناسة يخاطب إبراهيم بن سيابة :

يابن الذى عاش غير مضطهدٍ ... يرحمه الله أيَّما رَجُـــلِ
له رقاب المـــلوك خاضعةٌ ... من بين حافٍ منهمُ ومنتعلِ
أبوك أوْ هى النَّجادَ كاهلُه ... كم من كَمِيٍّ أدمى ومن بَطَلِ
يأخذ من مالِه ومِنْ دَمِه ... لَمْ يُمسِ من ثأرِه على وَجَلِ
فى كفِّه صارمٌ يقلِّبه ... يقـدُّ أعناق سَادةٍ نُبُلِ

وأخذ صاحبُ الشرطة رجلاً فى ريبة ، فقال : أصلحك الله : احفظ فىَّ الأبوَّة ، وقال:

أنا الذى لا تنزل الدهرَ قِدْرُه ... وإن نزلت يوماً فسوف تعودُ
ترى الناس أفواجاً إلى ضوء ناره ... فمنهم قيامٌ حولَها وقُعُـــودُ

فأَمر بتركه ، ثم أُخبر أنَّ أباه باقلانىّ ، فقال: لو لم نتركه إلَّا لأدبه وحسن تخلُّصه من الكذب لكان فعلنا سداداً .

وكان بالمدينة فتًى أبوه مغنٍّ وأمُّه نائحة ، فأَغضبه إنسان ، فقال : أتُغضِبنى وأنا ابن الطَّرَب والحرَب !

وقال ابن عباس المصرى يذكر غلاماً جميلاً ، والحجام يأْخذ من شعره فى الحمام:

مزينٌ انـبرى لظـــبيٍ ... كأنه البدر فى سُجُوفِهِ
كانَّ موساه وهولمَّـا ... نَضَى بها الشَّعر فى وقوفِهِ
كيوان فى كفِّه حسام ... يخلِّص البدر من كسوفِهِ

ولبعضهم يمدح حجاماً :

إن المزين إنسانٌ صناعتـه ... تعلو الصَّنائع إذ ما مثلها صُنِعَتْ
ألا ترى أنه لا يُنْـــتراب به ... وآله الموت فى صندوقِهِ جُمِعَتْ

يخلو مع الملك المرهوب جانبهُ ... فيما إليه ضرورات الأمور دعتْ
تعلو أنامله فى حين خلوته ... مواضعاً لو عَلَتْها غيرها قطعت

وقال السَّرى فى مزين محسن :

هل الحِذْقُ إلا لعبد الكريم ... حَوَى فضلَه حادثاً عن قديم[1]
إذا لمع البرق فى كفِّه ... أفاض على الرأس ماء النَّعيم
جهولُ الحُسَام ولكنَّهُ ... يروح ويَغْدُو بكفّ عَليم
له راحةٌ سيرها راحةٌ ... تمرّ على الرأس مرَّ النسيم
نعِمْنَا بخدمتهِ مُذ نشا ... فنحن به فى نعيم مقيم

وله فى طبيب :

أوضح نهج الطبّ فى معشر ... ما زال فيهم دارس الرَّسْم[2]
كأنّه من لُطْف أفكاره ... يجول بين الدَّم واللَّحْم
إن غضبت روحٌ على جسمها ... ألّف بَيْنَ الرُّوح والجسم

وفى ضده لأبى نصر كشاجم :

عيسى الطبيب تَرَفَّقْ ... فأنت طوفان نوح
بأبى علاجك إلا ... فراق جسمى وروحى
شتان ما بين عيسى ... وبين عيسى المسيح
فذاك محيى مماتٍ ... وذا مميت الصحيح

وللخوارزمى :

أبو سعيد راحل للكرام ... ومنسف ينسف عمر الأنامْ
لم أره إلا خشيتُ الردى ... وقلت : يا روحى عليك السلامْ

(١) ديوانه ٢٤٧
(٢) ديوانه ٢٥٥

يبقى ويفنى الناس من شؤمه قوموا انظروا كيف نحاة اللئام
ثم تراه آمناً سالماً يا ملك الموت إلى كم تنام

وللسَّرِيّ :

هل للعليل سِوَى ابن قُرَّة شاف بعد الإله وهل له من كافِ[1]
فكأنه عيسى بن مريم ناطقاً يهب الحياة بأيسَرِ الأوْصَافِ
مثلت له قارورتى فرأى بها ما اكتنَّ بين جوانحى وشغافِى
يبدو له الدواء الخفيُّ كما بدَا للعين رضراض الغدير الصافى

وكثرةُ الكلامِ وَقْفٌ على أهل الحجامة ، ولذلك عَرَفَ الحريرىُّ بين الشيخ وابنه ما تقدَّم فى هذه المقامة . وكان الفقيه الأعمش أكثرَ الناس تبرُّماً إن أعاد أحد عليه سؤالا انتهره ، وأخطأ يوماً على قوم ، فقالت لهم امرأته من وراء الستر : احملوا عنه فوالله ما يمنعه من الحج منذ ثلاثين سنة إلا مخافة أن يظلم كريّه أو يشتم رفيقَه ، وكثر عليه الشَّعر فقال له تلامذته : لو أخذت من شَعْرك ؟ فقال : لا نجد حجاماً يسكُت . قالوا له : نأتيك به ، ونأخذ عليه أن يسكُت حتى يفرغ ، قال : افعلوا . فأُتِيَ بحجام ووُصِّيَ ألّا يكلمه ، فبدأ بحلقه ، فلما أمعن سأله فى مسألة فنفض ثيابه ، وقام بنصف رأسه محلوقاً ، حتى دخل بيته ، فأخرج الحجّام . وأُتِيَ بغيره ، فقال : والله لا أخرج إليه حتى توصُّوه ، وتحلِّفوه ، فحلف ألّا يسأله فى شىء ، وحينئذ خرج إليه .

ومقامة الحجام فى البديعية ، منها قال عيسى بن هشام : فطلبت حجاماً فجاءوا برجل نظيف ، ظريف لطيف ، فارتحت إليه ، وسلَّمت عليه ، فقال لى : السلام عليك ، مِنْ أىِّ بلد أنت ؟ فقلت : من مصر ، فقال لى : حيَّاكَ الله ، من أرض

(١) ديوانه ١٧٤

النعمة والرفاهة ، وبلد السنة والجماعة ، ولقد حضرت فى رمضان جامعها ، وقد اشتملت المصابيح ، وأقيمت التراويح، فما شعرنا إلا بمدِّ النيل ، قد أتى على تلك القناديل ، ولكن صنع الله لى بخف ، كنت لبسته رطباً فلم يحصل طرازه على كمّه ، وعاد الصبيُّ إلى أمِّه ، بعد أنْ صلّيت العتمة ، واعتدل الظلُّ ، ولكن كيف كان حجُّك ، هل قضيت مناسكه كما وجب ، وصاح الصبيان : العجب العجب، فنظرت إلى المنارة،وما أهون الحرب عند النَّظَّارة ووجدت الهريسة على حالها ، فعلمت أنَّ الأمر بقضاء من الله وقدر ، وإلى متى هذا الضجر ، واليوم وغد ، والسبت والأحد ، ولم أكثر وأطيل ، وما أكثر القال والقيل ، وإن أردت أن تعلم المبرِّد حديد الموسَى فى النَّحو فلا تشتغل بقول العامة ، فلو كانت الاستطاعة قبل الفعل لحلقت رأسك ، فهل ترى يا سيدى أن ابتدئ؟

قال عيسى : فبقيت والله متعجِّباً من هَذَيانه ، وسألت عنه فإذا هو أبو الفتح قد غلب السَّواد عليه ، فتركته وانصرفت فهذه غرارة حجام على الحقيقة .

(١) من المقامة الحلوانية ص ٢٣٢ مع تغيير فى العبارة .

قال الشيخ الإمام الرئيس أبو محمد القاسم بن على رضى الله عنه :

قد أَوْدَعْتُ هذه المقامةَ بضعةَ عشرَ مثلا من أمثال العرب ، وها أنا أفسر منها ما إخاله يلتبس ، على مَنْ يقتبس .

أما قوله : بُطْء فِقد ، فهو مولَى عائشة بنت سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه ، وكانت بعثته بالمدينة ليقتبس لها ناراً ، فقصد من فَوْره مصر ، وأقام بها سنة ، ثم جاءها بعد السَّنة وهو يشتدّ ومعه جَمْر ، فتبدّدَ منه فقال : تَعِسَت الْعَجَلة !

وأمّا ذات النِّحيين فهى امرأة من تَيم الله بن ثعلبة ، حضرت سوق عُكاظ ومعها نِحْيا سمن ، فاستخْلَى بها خَوّات بن جُبَيْر الأنصارى ليبتاعهما منها ، ففتح أحدَهما وذاقه ودفعه إليها ، فأخذته بإحدى يديها ، ثم فتح الآخر وذاقه ودفعه إليها ، فأمْسَكَته بيدها الأخرى ثم غَشِيَها ، وهى لا تقدر على الدَّفْع عن نَفْسها لحفظها فَمَ النِّحيين وشُحَّها على السمن . فلما قام عنها قالت له : لا هَنأَك ، فضُرِب بها المثل فيمن شُغِل ، وهى فى هذا المثل مفعولة ، لأنها شُغِلت . وأكثر الأفعال التى على أفعل تأتى من فعل الفاعل .

وأما قولُه : أَنَفٌ فى السَّماء واستٌ فى الماء ، فيُضْرَب هذا المثل لمن يكبُر مقالا ، ويَصْغُر فَعالا .

وأما قوله : أفْرَغُ من حجّام ساباط ، فَذُكِر أنَّهُ كان حَجّاماً ملازماً ساباط المدائن يحجمُ الجندىّ بدانقٍ نسيئة ، وربَّما مَرَّتْ عليه بُرْهة لا يقربه فيها أحدٌ فكان يُبْرِزُ أمّه عند تمادى عُطْلَتِه ، فيحجمها لكيلا يقرَّع بالبطالَة ، فما زال يحجُمها حتى نَزِف دمُها وماتت .

وأما قوله : يشكو إلى غير مصمت ، فهو مثل يضرب لمن لا يكترث بشأن

صاحبه ، ولا يعبأ باستمرار شكايته ، لأنه لو أشكاه لصَمتَ . وأمسك عن الكلام ، ومنه قول الراجز يخاطب جملا له :

إنّك لا تشكو إلى مصمتْ
فاصبر على الحمل الثقيل أو متْ

ونحو هذا المثل : هانَ على الأَملس ما لاقى الدَّبر .

وأمّا قوله : شغلت شِعابى جَـــدْوَاى ، فالمراد به أنه ليس يفضل عنّى ما أصرِفُه إلى غيرى . والشِّعاب : هى النَّواحى ، واحدها شِعْب .

وقوله : كلّ الحذاء يحتذى الحافى الوقع ، معناه أن المجهود يقنع بما يجد ، والواقع أن نصيب الحجارةُ القدم فتُوهنها . فأما البعير الموقَّع فهو الذى يَكْثر آثار الدّبر بظَهْره .

المقامة الثامنة والأربعون - وتعرف بالحرامية

روى الحارث بن همام عن أبي زيد السَّروجيّ قال : ما زلتُ منذ رَحَلْتُ عَفْسِي ، وارتحلتُ عن عِرْسي وغَرْسي ، أحِنّ إلى عِيانِ البَصْرة ، حَنِين المظلوم إلى النُّصْرة ، لِمَا أجمع عليه أربابُ الدِّراية ، وأصحاب الرِّواية : من خصائص معالِمها ، وعلمائها ، ومآثر مشاهِدها وشُهدائها ، واسألُ الله أن يُوطِئَني ثَرَاها ، لأفُوزَ بِمَرَاها ، وأن يُعْطِيَنِي قَرَاها ، لأفترِيَ قُرَاها . فلمَّا أحَلَّنيها الحظّ ، وسَرَحَ لي فيها اللَّحْظ ، رأيتُ بِهَا مايملأ العَيْنَ قُرَّةً ، ويُسْلِي عن الأوطان كلَّ غَرِيبٍ ، فظَلْتُ في بعضِ الأيام ، حين نَصَل خِضابُ الظَّلام ، وهتف أبو المنذِر بالنُّوّام لأخْطُوَ في خِطَطِها ، وأقْضِيَ الْوَطَرَ من توسُّطِها ، فأدَّانِي الاختراق في مَسَالِكِها ، والانْصِلاتُ في سِكَكِها ، إلى مَحِلَّةٍ مَوْسُومَة بالاحْتِرام ، منسوبةٍ إلى بني حَرَام ، ذاتِ مساجدَ مشهودة ، وحياضٍ مَوْرُودَة ، ومَبَانٍ وَثِيقة ، ومغانٍ أنيقة ، وخصائصَ أثيرة ، ومزايا كثيرة .

* * *

رَحَلْت ، أي شددتُ عليها الرَّحْل ، والرَّحْلُ : سَرْج النّاقة ، والْعَنَس : الناقة القوية ، شُبِّهت بالعنس وهي الصَّخرة لصلابتها ، قال الليث : إذا تمّ سنُّ الناقة ، واشتدّت قوّتُها وصَلُبَتْ عِظَامها وأعضاؤها فهي عَنْس . عِرْسي : زَوجتي . غَرْسِي : أوْلادِي . أحِنُّ : اشتاق . عِيان : معاينة ومشاهدة . خصائص :

ما يختصّ به من الفضائل . معالمها : مواضعها المشهورة . والمآثر : الفضائل والمكارم ، والمأثُرَة : الفَضِيلة يخصّ بها . مشاهدها : مواضع اجتماع أهلها . يوطِّئنى ثَراها : يجعلنى أطؤها وأمشى عليها ، وأوطأه الشيء : أمكنه من أن يطأه . الثرى : التّراب النديّ . ومرآها : منظرها . يُمْطِينى قَراها : يُرْكِبنى ظهرها . أقْتَرِى : أتَتَبَّع . أحلّنيها : أنزلنيها . الحظّ : السعد . اللَّحظ : العين . قُرة : سُرُور . يسلِى : يُشْغل . غَلَّسْت : خَرَجْتُ فى الغَلَس ، وهى ظلمة آخر الليل . نَصَل : زال . هَتف : صاح . أبو المنذر : كُنية الديك ، ويكنى أبا سليمان . أبو هريرة : إنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : « لا تسبُّوا الديك فإنّه يوقظ للصلاة » .

أبو هريرة أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : « إذا سمعتم الدِّيَكة تصيح فإنها رأتْ ملَكاً فاسألوا الله من فضله ، وإذا سمعتم نهيق الحمير ، فإنها رأت شيطاناً فاستعيذوا بالله من الشيطان الرجيم » .

قال صلى الله عليه وسلم : الديك الأبيض صديقى وإنه يحرس دار صاحبه وسبع دور وكأنّ مستمعه فى البيت » .

وقال ابن المعتز ويصف ديكاً :

بشّر بالصبح طائر هَتَفا هاج من اللّيل بعد ما انتَصَفا
مذكّر بالصباح صاح بنا كخاطبٍ فوق مِنْبَرٍ وقفا
صفق إمّا ارتياحه لسنا الفجر وإما على الدّجا أسَفَا

وله :

وصاح فوق الجدار مشترفاً كمثل طرف علاه أسوارُ
ثم غدا يسأل الفرات عن الـ ـأرزاق منه ثغر ومِنْقَارُ
رافع رأسه طوراً وخافضهُ كأنّما العُرْف منه مِنْشَارُ

وقال الأسعد بن بليط :

وقامَ بها بِنْعَى الدُّجى ذو شقشقةٍ ... يدير الينابين أجفانه سقطا
إذا صاح أصغى سمعُهُ لأذانه ... وبادر ضرباً من قوادمه الإبطا
ومهما اطمأنت نفسه قام صارخاً ... على خيرازنٍ نيط من صُفْرَه خِرَطا
كأن أبو شروان أعلاه تاجَهُ ... وناطت عليه كفُّ مارية القرطا
سَبَى حُلّة الطاوس حسن لباسهِ ... ولم يكفه حتى سَبَى مشية البطا

قوله : أخطو ، أى أمشى . خططها : طرقها . الوطر : الحاجة . توسّطها : المشى فى وسطها . أدّانى : أوصلنى . الاختراق : المشى ، واخترقت البلدة ، إذا قطعت أرضَها بالمشى . والاختراق : المرور والسلوك . والمسالك : الطرق . والانصلات : الخروج بسرعة من زُقاقٍ إلى آخر ، وانصلت السيف : خرج بسرعة . سككها : أزقتها الواحدة سِكّة ، وسمّيت سِكّة لاصطفاف الدور فيها ، ويقال للطريق المستوية المصطفة من النّخل : سِكّة . محلّة : منزلة . موسومة : مُعْلَمة . الاحترام : الامتناع . حياض : جَمْع حَوْض . مورودة : مقصودة للشُّرْب . مغانٍ : منازل . أنيقة : مُعْجبة حَسَنة . أثيرة : منتشرة لكثرتها . مزايا : جمع مزيّة وهى الْفَضِيلة يختصّ بها الشىء .

* * *

بِهَا ما شِئْتَ مِنْ دينٍ ودُنْيَا ... وجيرانٍ تنافَوْا فى المعانى
فشغوفٌ بآياتِ المثانِى ... ومَفْتونٌ بِرَنَّاتِ الْمَثَانِى
ومضطَّلِعٌ بتلخيصِ المعانِى ... ومطَّلِعٌ إلى تَلْخِيص عانِى
وكم من قارِىءٍ فيها وقارٍ ... أَضَرَّا بالْجُفُون وبالجِفَانِ
وكمْ من مَعْلَمٍ للعلمِ فيها ... ونادٍ للنّدَى حُلْوِ المجانِى

ومغـــنًى لا تزالُ تُغَنُّ فيهِ أَغَاريدُ الْغَـــوانِى والأَغَانِى
فصِلْ إنْ شِئْتَ فيها بُصَـــلِّى وإمَّا شئتَ فادْن من الدِّنانِ
ودونَكَ صُحْبَةَ الأَكْياسِ فيها أو الكاساتِ منطلِقَ الْعِنَانِ

* * *

تنافَوْا : تباعَدُوا . مشغوف : مولع شديد الحبّ . المثانى : أمّ القرآن ، وقيل السَّبْع الطوال من أوّل القرآن . ورنات : أصوات . المثانى : أوتار عود الغناء . مصطلع : قوىّ . التلخيص : تهذيب الشىء وتخليص فوائده ، وكأنه مقلوب التّخليص . وتخليص عان : افتكاك أسير . قارئ : عابد مكثر لقراءة القرآن ، قار : مطعم للضيف . الجفون : العيون . الجفان : صحاف الطّعام ، يريد أن هذا أضرّ بجفونه بكثرة النّظر فى الورق قارئًا ما فيها وهذا بجفانه لإطعام ما فيها . مغنى : منزل . تغنّ : تصوّت . أغاريد : أصوات . الغوانى : جمع غانية ، وهى المرأة الجميلة . الأغانى : جمع أغنيّة ، وهى ما يتغنّى به . الدّنان : خوابى الخمر . دونك ، أى الزم . الأكياس : أهل الفِطْنة والتدبير . منطلق العنان : مسيب مسرّح .

* * *

قال : فبينما أنا أَنفضُ طُرَقَها ، وأستشِفّ رَوْنَقَها ؛ إذْ لمحتُ عند دُلُوكِ بَرَاحِ ، وإظلالِ الرَّواح ، مسجداً مشتهراً بطرائفه ، مُزْدَهِراً بطوائفِه ، وقَدْ أجْرَى أهلُه ذكرَ حُروف الْبَدَل ، وجَرَوْا فى حَلْبَةِ الْجَدَل ، فعُجْتُ نحوهم ، لِأَسْتَمْطِر نَوْءَهم ، لا لأقتبِسَ نَحْوَهم ، فلم يَكُ إلاّ كَقَبْسَةِ الْعَجْلَان ، حتَّى ارتفعَتِ الْأَصْوَاتُ بالأَذَان ، ثم رَدِف التأذينَ بروزُ الإمام ، فأُغْمِدَتْ ظُبَى الكلام ، وحُلَّت الحُبَى للقيام ، وشُغِلْنَا

بالقنوت ، عن اسْتِمْدَاد القُوت ، وبالسُّجُود ، عن استِزَالِ الجُود . ولمّا قُضِيَ الفَرْض ، وكَادَ الجَمْعُ يَنْفَضّ ، انبرَى من الجماعة ، كَهْلٌ حُلْوُ البَرَاعة ، له مع السَّمْتِ الحَسَن ، ذلاقةُ اللِّسَن ، وفَصَاحةُ الحسن . وقال : يا جيرتى ، الذين اصْطَفَيتُهُمْ على أغصان شَجرَتى ، وجَعلتُ خِطَّتَهم دَارَ هِجْرَتِى ، واتَّخَذْتُهم كُرسِى وعَيْبَتِى ، وأَعْدَدْتُهُمْ لحضرِى وغَيْبَتِى ، أما تعلمون أنّ لُبوس الصِّدق أبهى الملابس الفاخرة ، وأنّ فُضوح الدنيا أهونَ من فضُوح الآخرة ، وأنّ الدِّين إمحاضُ النّصيحة ، والإرشادَ عُنوان العقيدة الصحيحة ، وأن المستشار مؤتمن ، والمسترشِد بالنُّصح قَمِن .

* * *

انْفضْ طرقَها ، أى أمشى بها وحدى ، يقال : جاء فلان ينفضُ الطَّريق . إذا جاء وحده وقالت الجهنّية :

يرد المياه حضيرةً ونفيضةً ورْدَ القطاة إذا اسمألّ التُّبّعُ

الحضيرة : الذى يحضر معه غيرُه ، وجمعه الحضائر . والتّبّع : الظلّ . واسْمَألّ : نقص ، ويقال أيضاً : نفضَ المكانَ واستنفضه ، إذا نظر جميعَ ما فيه حتى يعرفه . استشف : استقصَى النظر . رونقها : حسنها . لحت : نظرت . دُلُوك بَرَاح : زوال الشمس ، وبَرَاح من أسمائها مبنى على الكسر . عبد الله بن مسعود . دُلُوكها : غروبها . أبو عبيدة : دلوك الشمس زوالُها وميْلُها ، وهو قول ابن عباس الأزهرىّ هذا القول أصحّ عندى ، وقيل : دُلُوكها ، من زوالها إلى غروبها .

ويدلّك هذا الوصفُ على أنّ البصرة من نهاية العظم والكِبَر على جانب عظيم ، لأنه زعم أنّه خرج فى الغلَس ، وبقِىَ يمشى فى أزقتها إلى الظهر . ويقال

إنها فى آخر الدولة الأموية كسرت فوجد فى طولها فرسخان ، وفى عرضها فرسخ وخمسة أسداس فرسخ .

قوله : إظلال ، أى دنوّ وقُرْب . طرائفه : عجائبه وغرائبه . مزدهراً : مضيئاً بحلَق الفضلاء والعلماء . طوائفه : جماعاته ، وحروف الإبدال يجمعها طال يوم أنجدته . والحَلْبة : جماعة الخيل فى الطَّلَق تجرَى ليُختبر عتيقُها من هَجينها . الجدل : الخصام . عجت : ملت . أستمتطر نوءهم : أطلب معروفَهم ، والنَّوء طلوع نجم من المنازل وسقوط آخر يقابله . أقتبس : آخذ ، وقبسة العجلان . أخْذَة القبس ، وهو شعلة من نار يقتبسها من مُعْظَم النار . رَدِف : تبع وجاء بعده ، قال تعالى : ﴿ رَدِفَ لَكُمْ ﴾[1] ، أى جاء بعدكم ، وأردفت الرجل جئت بعدَه . ابن الأعرابى : ردفت الرجل وأردفته ولحقته وألحقته بمعنًى واحد . القُنُوت : الطاعة ، وهو أيضاً طول القيام فى الصلاة . ابن الأنبارى : القنوت أربعة أقسام : الصلاة وطول القيام وإقامة الطاعة والسكوت . استمداد : طلب أن يمدّوه بالقُوت وهو الاستنزال . ينفض : يتفرق . انبرى : ظَهَر وقام بسرعة . كهل : تامّ الخلْق . السَّمْت : الوقار . ذلاقة : حدّه . اللَّسَن : حدّة اللسان ، وتقدم الحسن فى الأربعين . اصطفيتهم : اخترتهم . أغصان شجرتى : بنى عمّى وقَرابتى وأولادى . خُطَّتهم : بلدتهم ، والمهاجِر عند العرب : المستقبل من البادية إلى الحاضرة . ودار هجرتى : موضع سكناى الذى هاجرتُ إليه . كَرِشى : أهلى . عيبتى : خاصّتى الذين أنفرد بهم . وعيْبة الرجل : موضع سرّه . وكَرِشه : عياله . والعيبة : وعاء يجعل فيه المتاع ، والكرش مثلها ، والكرِش الجماعة من الناس ، والكرش أيضاً لكل مجترّ من البهائم بمنزلة المعدة من الإنسان ، فساق الكرِشَ والعيبة على جهة المثل وإنهم موضع سرّه ، وقال صلى الله عليه وسلم : « الأنصار كرِشى وعيبتى » ، قيل : موضع سرّى ، وقيل مدادى لأنّ ذات الكرش تستمد

(١) سورة النمل ٧٢

من كَرِشها . الفضوح والفضيحة : الشّهرة . إمحاض : إخلاص . الإرشاد : الهداية . عنوان العقيدة : دليل البواطن والمعتقدات . والمستشار : الذى تستشيره فى رأيك. مؤتمن : قد أمن على الأسرار والنفوس ، لايخون فيها ، وقال صلى الله عليه وسلم : « ما ندم مَنِ استشار ، ولا شَقِىَ مَن استخار » وقال بشار :

إذَا بلَغ الرأىُ المشورةَ فاستعنْ ... برأى نصيحٍ أو مشورةِ حازِمِ[1]

ولا تجعل الشّورى عليك غضاضةً ... فإنّ الخوافى رافداتُ القوادِمِ

وما خير كفٍّ أمسك الغلّ أختها ... وما خير سيفٍ لم يؤيَّدْ بقائمِ

وخلّ الهوينَى للضعيف ولا تكُنْ ... نئوماً فإنّ الدهرَ ليس بنائمِ

وحارب إذا لم تُعْطَ إلاّ ظُلامَةً ... شَبَا الحرب خيرٌ من قبول المظالمِ

وهى قصيدة طويلة ، قالها فى إبراهيم بن عبد الله ، فلمّا قُتِل صرفها إلى المنصور فى أبى مسلم ، وكان بشّار يقول: المشاور على إحدى الحسنيين : صواب يفوز بثمرته ، وخطأ يشارَك فى مكروهه وقال الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿وشاوِرْهُمْ فِى الأمْرِ﴾[2]، لما فى ذلك من الائتلاف ، وهو أغنى الناس عن المشورة وقال ابن المعتز :

تجاوز عن إساءة كلّ دَهْرٍ ... وصاحب يوم حادثةٍ بصَبْرِ

وإن نابتك نائبةٌ فشاور ... فكم حمِد المشاورُ غِبَّ أمرِ

وقسِّم همّ نفسك فى نفوسٍ ... ولا تنفردَنْ بطول فِكْرِ

إذا كظَّ الفرات بماء مدّ ... أغصّ به حلاقِمَ كلّ نَهْرِ

قال عيسى بن علىّ : ما زال المنصور يشاور فى أمره ، حتى قال فيه ابنُ هَرْمة :

إذا ما أراد الأمر فاجَى ضميرَه ... فناجى ضميراً غير مختلف العقْلِ[3]

(١) مختارات البارودى ٤ : ٤ (٢) سورة آل عمران ١٥٩
(٣) ديوانه ١٧٩

ولم يترك الأدنين فى كلّ أمره إذا اختلفت بالأضعفين قُوَى الحبلِ

وأنشد الجاحظ :

لَيْت هِنْداً أنجزتنا ما تَعِدْ وشفت أنفسَنا مِمَّا نَجِدْ[1]

واستبدّتَ مرّة واحدةً إنّما العاجزُ مَنْ لا يستبدّ

ثم قال : ولا أعلم الموصوفَ بالاستبداد إلا مجهّلا مذموماً ، والمثل السائر على الأفواه :

وما العجزُ إلاّ أن تشاور عاجزاً وما العزم إلّا أن تهمّ وتفعلا

وقال سعد بن ناشب :

إذا همّ ألقَى بين عَيْنَيْه عَزْمَهُ ونكّبَ عن ذِكْرِ العواقبِ جانبا[2]

ولم يستشر فى رأيه غيرَ نفسِه ولم يرض إلا قائم السَّيْفِ صاحِبا

وقال ابن رشيق فى أدب قوله تعالى : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فى الأمْرِ ﴾ :

أشاور أقواماً لآخذ رأيَهم فليوْن عنّى أعيناً وخُدُودَا[3]

وليس برأيى حاجة غيرَ أنّنى أؤنّسه كيْ لا يكون وَحيدَا

ولا أنا ممن يبعث السَّهمْ رَامياً إلى غرض حتى يكون سدَيدَا

فلا يتّهِمْ عقلى الرّجال فإننى أعرِّفهم أنّى خُلِقْتُ وَدودا

وأنشد الحريرى بيتى بشار فى درّة الغواص[4] على أن قول الخواص مشْوَرَة بوزن مفعله خطأ وإنما هى مَشُورة بوزن مَعُونة ومَثُوبة مثل مكرمة من الصّحيح ، فنُقِلت حركة الواو إلى ما قبلها فسكنتْ ، واختلف فى اشتقاقها فقيل : هو من شُرْتُ العسل أشُوره إذا جنيتَه، فكأن المستشير يجنى الرأى من

(١) لعمر بن أبى ربيعة، ديوانه ٣٠

(٢) لسعد بن ناشب ، ديوان الحماسة — بشرح المرزوق ٦٧

(٣) نقله الميمنى فى التنف ٢٤ (٤) درة الغواص ٢٨

المشير ، وقيل من شُرْت الدابّة إذا أجريتَها مقبلة ومدبرة لتختبرها ، والاشتقاقان متقاربان . المسترشد : السّائل أن يُرشَدَ . قِمن : حَقِيق .

* * *

وأنّ أخاك هُوَ الَّذِى عَذَلَكَ ، لا الَّذِى عَذَرَكَ ، وصديقَك مَنْ صَدَقَكَ ، لا مَنْ صَدّقَك ، فقال له الحاضرون : أيُّها الخِلُّ الودُود ، والخِدْنُ المَوْدُود ، مَا سِرُّ كلامِك المُلْغَز ، ومَا شرحُ خطابك الموجَز ؟ وما الّذى نبغيه منّا ليُنْجَزَ ، فوالّذى حبانَا بمحبّتك ، وجَعَلَنَا من صَفْوةِ أحبّتكِ ، مَا نَأْلُوك نُصْحاً ، وَلَا نَدَّخِر عنك نَصْحاً ، فقال : جُزيتُم خيراً ، ووُقيتم ضيرًا ، فإنّكُمْ مِمَّنْ لا يَشْقَى بِهِمْ جليس ، وَلَا يَصْدرُ عَنْهُمْ تَلْبِيس ، ولاَ يخيَّب فيهم مَظْنُون ، ولا يُطْوَى دونَهُمْ مَكْنُون ، وسأبُثُّكُمْ ما حالَ فى صَدْرِى ، واسْتَفْتيكم فِيمَا عِيلَ فِيهِ صَبْرِى .

* * *

عَذَلَك : لَامَك . صَدَقَك : قال الصدق ، كأنه أراد أن الصديق إنما سُمِّىَ صَدِيقاً لصدقه لصاحبه ، يريد أنّ أخاك هو الذى يلومُك ويقبِّح لك سوء فعلك ومَنْ حسَّن عذرك فى ذلك ، فليس بصديقٍ ولا أخ ، مثل ما حَكَى الأصمعىّ ، قال : سمعتُ أعرابيًّا يقول لأخٍ له : اعلم أنّ الناصح لك المشفِق عليك ، مَنْ طالع لك ما وراء العواقب برويّته ونظره ، ومثّل لك الأحوال المخوفة ، وخلَط لك الوعْر بالسّهل من كلامه ومشورته ، ليكون خوفُك كفَّء رجائك ، وشكرك إزاء النعمة عليك ، وأنّ الغاشّ لهواك والحاطب عليك من مَدّلك فى الاغترار ، ووطّأ لك مهاد الظّلم ، تابعاً لمرضاتك منقاداً لهواك ، وقال الشاعر فيمن لا يقبل النصح :

إذا ما حديث امرأً مخطئاً أضل السّبيلَ إلى قَصْدِهِ
فلم تلفِه سامعاً قابلًا فحسنٌ له المشيَ فى ضِدّه

الخِلّ : الخليل . الودود : الصاحب الكثير الودّ . الخدن المودود : الصديق المحبوب . اللغز : المبهم الخفىّ . الموجز : المختصر . تبغيه : تطلبه . ليُنْجَز : ليفعل فى الحين . حبانا : اختصّنا . صفوة : خيار . نألوك نصحاً : نقصّر فى نصيحتك . ندّخر : نرفع ونخبأ . نضحاً : عطية ندفعها لك ، مأخوذ من النّضح وهو الشرب القليل دون الرىّ . والنَّضْح أيضاً : الرشّ بالماء . وقيتُم ضيراً : كفيتم الضّر . يَصْدر : يرجع . تَلْبيس : التباس وتخليط . لا يخيّب فيهم مظنون ، أى ما ظن فيهم من النّصح والمعاونة موجودة فيهم غير مفقودة . مكنون : مستور . يُطْوَى : يُحجَب ويستتر . أبثّكم : أنشر لكم وأظهر . حاك فى صدرى : أثّر فيه واحتكّ به . عيل : غلب ، وعالنى الشىء عَوْلًا : غلبنى وثقُلَ علىّ .

* * *

اعلموا أنّى كنتُ عِنْد صُلود الزَّنْد ، وصُدود الجَدّ ، أخلصتُ مع اللهِ نيّة العَقْد ، وأعطيتُه صَفْقَة العَهْد ، على ألّا أسبأ مُداماً ، ولا أُعاقِر نَدامَى . ولا أحْتَسِى قَهْوَة ، ولا أكْتَسِى نَشْوَة ، فسوّلتْ لى النَّفْسُ المُضِلّة ، والشَّهْوة المُذِلّة المُزِلّة ، أنْ نادَمْتُ الأَبطالَ ، وعاطَيْتُ الأَرْطَال ، وأَضعتُ الوَقار ، وارْتَضَعْتُ العُقار ، وامْتَطَيْتُ مَطَا الكُمَيت ، وتَناسَيْتُ التَّوْبَة تناسِيَ المَيْتِ ، ثم لمْ أَقْنَعْ بها تِيكُمُ المَرّة ، فى طاعة أبى مُرّة ، حتى عكفتُ على الخُنْدَرِيس ، فى يوم الخميس ، وبِتُّ صَرِيع الصَّهْباء ، فى الليلة الغرّاء ، وها أنا بادِى الكآبة ، لِرَفْضِ الإنابة ، نامِى

النَّدَامَة ، لِوَصْلِ المُدَامة ، شديدُ الإشْفاق ، من نقضِ الميثاق . معترفٌ بالإسْرَاف ، فى عَبِّ السُّلاف :

فيا قومِ هل كفّارةٌ تعرِفُونها تُباعِدُ مِنْ ذَنْبِي وتُدْنِي إلَى رَبِّي

* * *

قوله : صُلُود الزّند ، هو ألّا يسمح بالنّار . صُدود الجَـدّ : إعراض السعد ، يريد الأيام التى كنت فيها فقيراً . والعَقْد ، كانت العرب إذا عاهد الرجل صاحبَه عَقَد أصابعه ، ثم صارت المعاهدة باللسان تسمّى عقْداً ، وكان أحدُهم يربطُ رَسَن بعيره بخباء مَنْ يستجير به أو يرسل حَبْلَه فى البئر مع حبله ، فيشبكه به ، وكان هذا كله عندهم عَقْداً لا يسلِّم المستجارُ به المستجيرَ إلا لما يسلم ولَده ، وقال حبيب :

بلَى لقـد سلفت فى جاهليّتهمْ للحق ليس لحقّ حرمة عَجَبُ
أن يعلق الدّلو بالدّلو الغريبة أوْ يلامس الطنبَ المستحصدَ الطُّنُبُ

الصَّفْقة : ضربة يد المشترى على يد البائع . أسبأ : أشترى . مُداماً : خمراً . أكْقَسِي نَشْوة : أظهر سَكْرة . سوّلت : زيّنت وحسّنت . المضِلّة : المحيّرة . الأبطال : فرسان الخلاعة للسنّ . الأرطال : وهى أربعة ، وقال فى ذلك :

سألتُ أخى أبَا عيسى وجبريل له فَضْـلُ
فقلتُ : الخمرُ تُعجبنِي فقال كثيرُها قَتْلُ
فقلت له فقـدِّ رِجْلِي فقال وقوله فَضْـلُ
وجـدت طبائع الإنسا ن أربعةً هى الأصْلُ
فأربعة لأربعـة لكلٍّ طبيعةٍ رطـلُ

يذكر هذا الرجل أنه تاب من شرب المسكر ، وعاهد الله ، ألاّ يشرب خمراً ، ثم ارتدّ ورجع لخلاعته .

ومثل حالته هذه حالة أبى محمد البصرىّ ، كان تاب وحجّ ، فلما قفل راجعاً بدا له فى شرب الخمر ، فقال :

ألا يا هِنْدُ قد قضَّيت حَجِّى ... فهاتِ شرابَكِ العَطِرَ العجيبا
فقد ذهبتْ ذنوبى بالليالى ... فقومى الآن نَقْتَرِفُ الذّنوبا
خَلَطْنا ماء زمزم فِى حَشانا ... بماء المزْنِ فامتزجا قريبا

وكان أبو القاسم المغربى قد نسك زماناً ، ولبس الصُّوف وترهّب وحجّ ، فعشق غلاماً تركيًّا وهام به ، وتقلّد الوزارة ببغداد وغيرها ، وانتهى فى الجاه إلى الغاية وتملّك الأحرار ، واشترى الغلام التركىّ وقال :

تبدّل من مَرْقَعةٍ ونُسْكٍ ... بأنواع المسك والشُّفوفِ
وعنّ له غلام ليس يحوى ... هواه ولا رضاه بلبس صُوفِ
فهذا أشدّ ما كان انتهاكا ... كذاك الدهر مختلفُ الصُّروفِ

وقال أيضاً :

يا أهلَ مصر قد عاد ناسككمْ ... بالكرخ بعد التُّقى إلى الفَتْكِ
خَمْشَ قلبى مقرطَق غَنِجٌ ... قد بدّ قلبى به من النّسْكِ
رمى فؤادى بسهم مُقْلَتِهِ ... وكيف يُخطِى مولد التُّرْكِ !

وقال كشاجم :

يقولون تُبْ والكأس فى كفّ شادنٍ ... وصوتُ المثانى والمثالث عالى[1]
فقلت لهم : لو كنت أزمعت[2] توبةً ... وأبصرت هذا كلّه لبَدَالِى

(١) ديوانه ١٤١
(٢) الديوان : « أضمرت »

وقال الحسن :

كيف النُّزوع عن الصِّبا والكاس ... قس ذا لنا يا صاحِبى بقياسِ[1]
قالوا كَبِرْتَ فقلت ما كبرتْ يدِى ... عن أن تسير إلى فمى بالكأسِ
والرّاح طيِّبة وليس تمامها ... إلا بطيب خلائقِ الجُلّاسِ
وكأنّ شاربها لفرط شَعاعها ... بالليل يكرع فى سَنَا مِقْبَاسِ
وإذا نَزَعْتَ من الغواية فليكنْ ... لله ذاك النَّزْعُ لا للنَّاسِ

قوله : أضعت الوقار ، يريد أنه ضيَّع وقاره فى مجلس اللَّهو ، وقد تقدّم قوله :

وأصفى السرورَ إذا ما الوقورُ ... أماط ستور الحيا واطَّرَحْ

العُقَار : الخمر ، لأنها عاقرت الدنّ ، أى لازمته ، أو لأنَّها تعقر شاربها بثقل السُّكْر . امتطيت : ركبت . مَطَا الكُمَيْت : ظهر الخمر ، وورّى بفرس ، أراد أنّه اعتكف على شربها ، وسُمِّيَت كميتاً لأنها حمراء إلى الكُمْتَة ، وأبو مرة كنية إبليس ، وقد تقدَّم ، وقال الحسن :

نِمْتُ وإبليس إلى الصّبح فى ... كلّ الّذى يؤثِمُنِي خَصْمُ
رأيته فى الجوّ مستعلياً ... ثم هوى يتبعه نَجْمُ
فقال لى لمّا هَوَى مرحباً ... بتائب يتبعه وَهْمُ
هل لك فى غَيْدَاء ممكورةٍ ... يرتجّ منها كَفَلٌ ضَخْمُ !
فقلت : لا ، قال : فنى أغْيَدٍ ... ذى غُنَّة يجرحُه اللَّثمُ
لستَ أبا مرّة إن لم تَعُدْ ... فإن ذا من فعلك الْغَشْمُ

وقال فيه وذكر أنه قاد له غلاماً :

دبّ له إبليس فاقتادَه ... والشيخ نَفَّاعٌ على لعنتِهْ

(١) ديوانه ٢٩٥

عجبت من إبليس فى كبره وخُبْثِ ما أضمر من نيَّتِهْ
تاه على آدم فى سجدةٍ وصار قوّادًا لذرّيتِهْ

وقال سليمان بن الأعمى فى الوليد ، أخو صريع الغوانى :

يأبى السجود له مِنْ فرط نخوته وقد تحوّل فى مِسْلَاخِ قَوَّادِ

وقال ابن رشيق يشكر إبليس :

رأيتُ إبليس مِنْ مُرُوءته لكلِّ ما لا يُطاقُ محتمِلاَ[1]
إذا هويتُ أمراً وأعجزنى جاء به فى الظلام معتقِلاَ
تبذُّلاً منه فى حوائجنا ولا يزال الكريم مبتذلاَ

وقال أيضاً يلعنه :

أرَى الشَّيْخ إبليسَ ذا عِلَّةٍ فلا برئُ الشيخ من عِلَّتِهِ[2]
يقود على الحب مستيقظاً ويأتيك فى الليل فى صُورتِهِ
فيُؤتيك ما شاء من نفسِهِ ويُبلِغ ما شاء من لَذَّتِهِ
ومن كان ذا حيلةٍ هكذا تمثَّل للمرء فى يَقْظَتِهِ
فلا تدَّخروا دونه لعنةً لأنَّ رضا الله فى لَعْنَتِهِ

قوله : عكفت ، أى أقمت ولازمت : الخُنْدَريس : الخمر القديمة ، وإنما ذكر يوم الخميس لأنه يومُ تعرَض فيه الأعمال على الله تعالى وإقدام العبد على الذنوب وقت العرْض على الله تعالى أكبر خطراً . الصَّهْباء : التى عُصِرَتْ من عنب أبيض . الأصمعىّ : هى التى تضرب إلى البياض ، من أبيضَ عُصِرَتْ أو من غيره . صريعها : الذى صرعته بالسُّكر ، يريد أنه بات سكران مطروحاً .

وقال أبو العلاء بن زهر فى سَكارى :

(١) التنف ٥٩
(٢) التنف ١٥

وموسَّدِينَ على الأكفِّ خدودَهُمْ قد غالَهُمْ شُرْبُ الصَّبُوح وغالني
مازالت أسقيهِمْ وأشربُ فضلهمْ حتى سكرت ونالهمْ ما نالني
والخمرُ تعرف كيف تأخذ ثأرها إني أملْتُ إناءها فأمالـــني

الغرّاء : ليلة الجمعة . رفض الإنابة : طرح التَّوْبة والرجوع . نامى الندامة : كثير الندم . بادى الكآبة : ظاهر الانكسار والحزْن وسوء الحال . المُدام والمُدامة : الخمر ، سُمِّيتْ بذلك لأنها أديمت فى ظَرْفِها . الإشفاق : الخوف . نَقْض الميثاق : حلّ العهد . الإسراف : الإكثار . عَبّ : حَسْو ، والعبّ أن يتابع الرجل الجرْعة بعد الجرْعة بغير تنفّس . السُّلاف : الخمر العتيقة ، والسُّلاف والسُّلافة : ما سال منها من غير أن تُعصر ، وهى أفضل الخمر قال الأعشى :

ببابلَ لم تُعْصَر فجاءت سُلافةً تخالط قنديدا ومسكا مُخَتَّما[1]

القِنْديد : الخمر تطبخ ويجعل فيها أفاويه طيب .

[مقاطيع خمرية]

ونذكر هنا جملة من المقاطيع الخمريّات ، نجعلها خاتمة ما قيل فى الخمر .

عزم الواثق على الصَّبوح فقال للحسين بن الضحاك : اكتب إلى الفتح ابن خاقان تدعُوه إلى الصَّبوح ، وكان قد بَرِئَ من مرض ، فكتب إليه :

لمَّا اصطبحتُ وعينُ اللَّهو تَرْمُقُنِي قد لاَح لى باكراً فى ثَوْبِ لَذَّتِهِ[2]
ناديت « فتحاً » وبشرَّت المُدام به لمَّا تخلَّص من مكروه عِلَّتِهِ
ذَبُّ الفتى عن حَرِيم الرَّاحِ مكرمةٌ إذا رآها امرؤ ضـــدًّا لخلقتِهِ[3]
فاعْجَلْ إلينـــا وعجِّل بالسرور لنا وخالس الدهر فى أوقات غفلتِهِ

فسار وأصطبح معه .

(١) ديوانه ٢٩٣ (٢) ديوانه ٣٣
(٣) الديوان : « لخلقه »

وقال الحسين بن الضحاك : دخلتُ على الحسَن بن سهل ، فى فصل الخريف وقد جاد الوسميّ من المطر برشٍّ حسن ، واليوم فى أحسن منظر وأطيبه ، وهو جالس على سرير أبنوس ، وعليه قبّة فوقها طارفة ديباج أصفر ، تشرِفُ على بستان ، وعلى رأسه غلام كالدينار ، فسلّمت عليه فردّ علىّ السلام ، ونظر إلىّ كالمستنطِق ، فقلت :

ألستَ ترَى ديمـةً تهطُلُ وهـذا صباحُك مستقبَلُ[1]
وهـــذا المدام وقَدْ راعنا بطلعته الشّادن الأكحلُ
فعادَ بنـــا وبه سَكْرَةٌ تهوّن مكروه ما تسألُ
فإنّى رأيتُ له طُرَّةً تخبرنى أنّه يَفْعَـــلُ
وقد أشكل العيشُ فى يومنا فياحبـذا عيشنا المُشْكِلُ

فقال : العيش مشكل ، فما ترى ؟ قلت : مبادرة القَصْف ، وتقريب الإلْف ، قال : على شرط أن تبيت ، قلت : لك الوفاء على أن يكون هـذا الواقف على رأسِك يسقينى ، فضحك ، وقال : ذلك لك على ما فيـه ، ثم دعا بالطّعام والشراب ، ففقدت الغلام ساعة ثم جاء من الحمّام ، فقلت :

جرّده الحمـــام عن درّة تلوح فيها عُـكَنٌ بَضّهْ[2]
كأنّما الرَّشُّ على خـدّه طلٌّ على تفّاحةٍ غَضّهْ
يا ليتَه زوّدنى قُبْـــلةً أولا فمن وجنته عَضّهْ

فقال الحسن : قد عمل فيك النبيذ ، فقلت :

اسْـــقيانى وصرّفَا بنت حَوْلين قَرْقفَا[3]

(١) ديوانه ٩١ ، ٩٢
(٢) ديوانه ٧٠ ، ٧١
(٣) ديوانه ٨١

واسْقِيا الأهْيَفُ الغَرِيـــر سَقَى اللهُ أهْيَفَا
بأبى ماجن السريـــرة يبـــدى تَعطُّفَا
فإذا رمت منه ذا لـ ك تأبَّى وَعنَّفَا
فإذا همّ للمنـــا م فقـــوماً وخَفَّفَا

فتغاضب الغلام فذهب ، ثم عاد وقال : أقْبِل على شرابك ، ثم ناولنى قدحاً ، والحسَن قد خرج ، فشربت وأعطانى نقلا ، فقلت : اجعل بدله قُبلة ، فأَبى ، فقال له فرج غُلام الحسن : بحياتى يابنىّ ، أسعفه بما طلب ، فضحك ثم دنا منّى كأنه يعطينى نُقْلا وتغافل ، فاختلست منه قُبْله ، فقال : هى حرام ، فقلت :

هوّنَ الأمْرَ عليـه لى فَرَجْ بتَأتِّيهِ فَسَقْياً لِفَرَجْ[1]
وبنفسى نفس مَنْ قال وقدْ كان ما كان: حرامٌ وحَرَجْ

ثم اشتهر الصبح ، فخرجت ثم عدت للحسن من غدٍ ، فقال : كيف كان سِيتُك يا حسين ؟ فقلت :

تألفتُ طيفَ غزالِ الحرَمْ فواصلنى بعد ما قد صرَمْ[2]
فغضّ الجفون على خجْلَةٍ وأعرض إعراضةَ المحتشِمْ
فمـــا زلتُ أبسُطه مازحاً وأُفرط فى اللّهْوِ حتَّى ابتَسَمْ
وحكَّمنى الرِّيم فى نفسه بشىء ولـكنّه مُـكْتَتَمْ

فقال : يا فاسق ، أظنّ ما ادّعيتَه فى النوم وكان فى اليقظة ؟ وأصلَحُ الأشياء بنا أن نَرْحَضَ العار عن أنفسنا بهبتِه لك ، فخذه لا بارك الله لك فيه ، فأخذته وانصرفت .

(١) ديوانه ٨١ ، ٨٢
(٢) ديوانه ٩٤

وقد تقدّم فى هـذا الكتاب من كلام الحُسين ما يفوق به كلّ شاعر ، وهو القائل :

أخِرْنِي فإنّى قد ظمئتُ إلى الوعدِ ... متى يُنجز الوعد المؤكّد بالعَهْدِ![1]
أعيذك من خُلْفِ الملوك وقد تَرَى ... تقطّع أنفاسى عليك من الوجْدِ
أيبخلُ فَرْدُ الحسن عنّى بنائلٍ ... قليل وقد أفردته بهوًى فَرْدِ !

وهذا منتهى ما أوردته للحسين من العجائب .

دخل علىّ بن الجهم على عبد الله بن طاهر فى غَدْوة الربيع ، وفى السماء غيم رقيق ، والمطر يجىء قليلا ، ويسكن قليلا ، فغاضبتْه جارية له ، فانتقض عزمه فخبّر ابنَ الجهم بذلك ، فأراد تنشيطه فدخل عليه فأنشده :

أما ترى اليومْ ما أحلَى شمائلَه ... صحوٌ وغيمٌ وإبراق وإرعادُ[2]
كأنه أنت يا مَنْ لا شبيهَ له ... وصلٌ وهجرٌ وتقريبٌ وإبعادُ
فباكِرِ الرَّاح واشربْها مُعَتَّقَةً ... لم يدّخر مثلها كسرى ولا عادُ

واشرب على الرَّوْضِ إذْ لاحتْ زخارفه

زَهْرٌ ونَوْرٌ وأوراق وأورادُ
كأنما يومنا نعل الحبيب بنا ... بذل وبُخلٌ وإبعاد وميعادُ
وليس يذهب عنى كلّ فعلِكمُ ... غىّ ورشد وإصلاح وإفسادُ

فاستحسنها وأمر له بثلثمائة دينار وحمله وخلع عليه .

وقال على أيضاً :

الوردُ يَضْحَكُ والأوْتارُ تصطخب ... والناى ينـدب أحياناً وينتحبُ[3]

(١) ديوانه ٤٦
(٢) ديوانه ١٢٢
(٣) ديوانه ١٠٥

والراح تُعْرَض فى يوم الربيـــع كما تُجْلَى العروسُ عليها الدرّ والذهب
وكلما انسكبت فى الكأس آونةً حسبت أن شُعاع الشَّمْسِ يَنْسَكِبُ

وقد مرّ من كلام ابن الجهم كلٌّ بديعٍ ، فى نظمه رفيع ، وآخر شعر قاله وهو أحسن ما قيل فى معناه :

يا رحمةً للغريب فى البلد النّـــازح ماذَا بنفْسِهِ صَنَعَا[1]
فارق أحبابه فمـــا انتفعوا بالعيْش من بعده ولا انتفَعَ
يقولُ فى نأيه وغربته : عَدْلٌ منَ الله كل ما صَنَعَ

وكان هجاء لعلى بن أبى طالب ، وسمعه يوماً أبو العيناء يطعن على علىّ فقال له : أنا أدرى لم تطعن على أمير المؤمنين ، قال : أتعنى قصّة بيعة أهلى ، قال : لا ، أنت أوضع من ذلك ولكن لأنه قتل الفاعل [فعل] قوم لوط وأنت أسفلهما . وقال البحترى فيه :

إذا ما حُصِّلتْ عُلْيـــا قريشٍ فلا فى العـــير أنتَ ولا النفيرِ[2]
ولو أعطاك ربّك ما تمـــنَّى لزاد الخلـــق فى عِظَمِ الأيورِ
علام هجوت مجتهـــداً عليًّا بما لفّقتْ من كذبٍ وزورِ
أما لك فى استك الوجْعاء شغلٌ يكف أذاك عن أهـلِ القبورِ

وقال ابن القناص كاتب سيف الدولة :

قُمْ فاسقنى بين خفْق النّاى والْعُودِ ولا تَبِـعْ طيبَ موجود بمفقودِ
كأساً إذا أبصرتْ فى القوم محتشماً قال السرور له قُمْ غـــيرَ مطرودِ
نحنُ الشهود وخفْق النّـاى خاطبنا يزوّج ابْن سحابٍ بنتَ عَنقودِ

(١) ديوانه ١٥٤
(٢) ديوانه ١٠٣٨

وقال المصحفى :

صَفْراء تطرقُ فى الزُّجاج فإن سَرَتْ ... فى الجسم دبَّتْ مثل صلّ اللّادغِ
خفيتْ على شرّابها فكأنّهم ... يجدُون ريًّا فى إناء فارغِ

إدريس بن اليمانى :

ثملَتْ زجاجاتٌ أتتنا فُرَّغاً ... حتى إذا مُلِئَتْ بصرْف الرَّاح
خفّتْ فكادت أن تطير بما حَوتْ ... إن الجسُوم تخفُّ بالأَرْواح

ابن المعتز :

ونَدْمانٍ سُقِينَ الرَّاحَ صِرْفاً ... وأُفْقُ اللَّيْلِ مُرْتَفِعُ السُّجُوفِ
صَفَتْ وصَفَتْ زجاجتها فأضْحَتْ ... كمعنًى دقَّ فى ذهنٍ لطيفِ

وله ، وهو مما يتصل بأبيات الديك المتقدمة :

فاشرب عُقَاراً كأنّها قَبَسٌ ... قد سَبَكَ الدَّهْرُ تبرَها فَصَفَا
تَرَى النَّدامى الإبريقَ من دَمِها ... كأنه راعفٌ وما رعُفَا

ولبعضهم :

ما زال يشربُها وتشرب عقلَه ... خَبْلًا وتُؤْذِنُ رُوحَهُ برواح
حتى انثنَى متوسِّداً بيمينه ... سكراً وأسلم رُوحَه للراح

وقال النظام :

ما زلت آخذ رُوح الرِّق فى لطفٍ ... وأستبيح دماً من غير مَجْرُوح
حتى انثنيتُ ولى روحان فى جَسَدِى ... والرِّقّ مطَّرح ، جِسمٌ بلَا رُوح

أخذه أحسن أخذ من بَشّار حيث قال :

شرْبنا من فؤادِ الرِّق حَتّى ... تركنا الرِّق ليسَ له فُؤادُ

وقال ديك الجن :

وقم أنت فاحثث كأسنا غير صاغر ... ولا تسق إلّا خمرها وعُقارها[1]
فقام تكاد الكأس تخضب كفّهُ ... وتحسبه من وجْنَتَيْه استعارها
موردةً من كفِّ ظبيٍ كأنّما ... تناولها من خدّه فأدارها
ظلِلْنَا بأيدينا نتعتِع روحَها ... فتأخذ من أقدامنا الرّاحُ ثارَها

وقال حبيب :

وكأسٍ كمعسول اللّماء شربتُها ... ولكنّها أجْلَتْ وقد شربت عقلي[2]
إذا عُوتبت بالماء كان اعتذارُها ... لهيباً كوقع النّارِ بالحطَبِ الجزلِ
إذا اليدُ نالتْها بوتر توقّرَتْ ... على ضِغْنِها ثم استقادت من الرِّجل

وقال الحسن :

وصفراء قبل المزْج بيضاء بَعْدَهُ ... كأنّ شُعاع الشّمسِ يَلْقاكَ دُونَها[3]
ترَى العينَ تستعفيك من لمعانِها ... وتحمرّ حتى ما تقلّ جفونَها
كأن يواقيتا رواكدَ حولَها ... وزُرْقَ سنانيرٍ تُدِير عُيونَها

ولبخوارزمي :

وصفراء كالدّينار بنت ثلاثة ... شمال وأنهارٌ ودهر محرَّمُ
مسرة محزونٍ، ورَغْدُ معربدٍ ... وكنز مجوسيٍّ وفتنة مُسْلِمِ
يطوف بها ظبي يريدُ عيوننا ... على عينه، من شَرْطِ يحيى بن أكثَمِ

وقال مسلم بن الوليد :

إبريقُنا سلب الغزالةَ جيدَها ... وحكى المدير بقلتيه غزالا[4]
يَسْقِيك من عَيْنَيْهِ كأس صبابةٍ ... ويُعيدُها من كفّه جِرْيالا

(١) ديوانه ١٠٧ (٢) ديوانه ٤١٩
(٣) نهاية الأرب ٤ : ١١٥ (٤) ديوانه ٢٠٤

وقال أبو ذلامة :

سقانى أبو بترٍ من الرَّاح شربةً لهـــا لذّةٌ ما ذوقُها بشراب
وما طَبخُوها غـــير أنّ غلامهم مَشَى فى نواحى كَرْمِها بشهاب

ولما أنشدها على بن الخليل صاح : أحرقها العبد أحرقه الله !

كان ابن لنسكك أسرعَ الناس سكراً ، فقال فى ذلك :

فَدْيتُكَ لو عِلْمتَ ببعض مَا بِى لمـــا جرّعْتَنِى إلّا بمُسْعِطْ
فحسبك أن كرماً فى جوارى أمرُّ ببابه فأكاد أسقُطْ

قوله : فياقوم هل كفارة تعرفونها ، إنما غيَّر بيت أعرابىّ ، أنشد أبو العباس أبياته ، وهى :

فياقوم هـــل كفارة تعرفونها تُباعِدُ من ذنبى وتُدْنى إلى رَبِّى
شكوت فقالتْ كلّ هـــذا تبرُّماً بحبّى أراح الله قلبك من حُبِّى
فلما كتمت الحبّ قالت : لَشدّ ما صبرت وما هذا بفعلِ شَجِى الْقَلْبِ
وأدنو فتُقصينى وأبعـــدُ طالباً رضاها فتعتدّ التّباعد من ذَنْبِى
فشكوايَ يُؤْذِيها وصبرى يَسُوءها وتجزع من بُعْدِى وتنفَر من قُرْبِى
فيا قوم هل من حيـــلةٍ تعرفونها
أشيروا بهـا واستوجبوا الشكرَ مِنْ رَبِّى !

وقال أبو العبر الهاشمى المتحامق :

أبكى إذا غضبت حتى إذا رضيت بكيت عند الرضا خوفاً من الْغَضَبِ
فالموتُ إنْ غَضِبَتْ والمـــوت إنْ رَضِيَتْ
إن لم يُرِحْنِى سُـــلُوٌّ عِشْت فى تعبِ

وأبو العبر على تحامقه جيّد الشعر ، ومن ذلك قوله :

وفى ساعدى ممن تعلقت عَضَّةٌ ... تذكّرنى ذاك الشَّنِيبَ المفلَّجا
وآثار خدشٍ فى يدىّ مليحةٍ ... أقام عليها القلب منى وعرّجا
أما والذى أمسيتُ أرجُو ثوابه ... لقدحلّ ما أخشاه وانقطع الرجا

وله :

داء دافينٌ وهــوًى بادِى ... أظــلم مُجازِيك بمرصادِ
يا واحــد الأمة فى حسنه ... أشْمَتّ فى صدّك حُسّادِى
عبدُك تُحْيِى موتَه قبلةٌ ... يجعلهــا خاتمة الزّادِ

ولأعرابى فى نحو ما أنشده أبو العباس :

سكتُّ فقالت : لِمْ سَكَتَّ عن الحقِّ ... وفُهتُ فقالت : ما دَعاك إلى النُّطْقِ
فأومأتُ هل من حالةٍ بين ذا وذا ... فقالتْ وذا الإيماء أيضاً من الحُمْقِ
فــلم أرَلِى إذ حَلّتِ الغرب مخلَصاً ... من الشرّ إلا فى المسير إلى الشرقِ
فلمّا أتيتُ الشّرْقَ ألفيتُهــا به ... وقد قعدتْ لى منه فى أضْيَق الطُّرُقِ

* * *

وعلى ما تقدّم فى وصف الخمر من النظم المستحسن المرغب فى شربها ، فإنه جاء من التحذير فيها ما يوجب تركها على أهل التخصيص والفضل .

من حديث أنس رضى الله تعالى عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: « مَنْ شَرِبَ الخمر لم تقبل له صلاةٌ أربعين ليلة فإن تاب تاب الله عليه ، فإن عاد الثانية لم تقبل له صلاةٌ أربعين ليلة ، فإن تاب تاب الله عليه ، فإن عاد الثالثة لم تقبل له صلاةٌ أربعين ليلة ، فإن تاب تاب الله عليه ، فإن عاد الرابعة كان حقًّا على الله أن يسقيَه من طينة الخبال » .

ابن الأعرابى : طينة الخبال عُصارة أهل النار فى النار .

وعن ابن عمر أنّ النبى صلى الله عليه وسلم قال: « مدمنُ الخمر كعابد وثن » .

قال أبو زيد : فلمّا حلَّ أنشوطةَ نَفْثِه . وقَضَى الوَطَرَ من اشتكاءِ بَثِّه ، ناجتْني نفسي : يا أبا زَيْد ، هذه نُهزةُ صَيْد ، فشمِّرْ عن يدٍ وأيْد . فانتهضتُ مِنْ مَجْثَمِي انتهاضَ الشَّهْم ، وانحرطْت من الصّفِّ انحِراط السَّهْم ، وقلت :

أيُّهـــا الأرْوعُ الّذى فاقَ مَجـــدًا وسُؤْدُدَا
والّذى يبتغِى الرَّشَا دَ لِيَنْجُو بهِ غَـــدَا
إنَّ عِنْـــدى عِلاجَ ما بتَّ منـــه مُسَهَّدَا
فاستمِعْها عجيبـــةً غادرتْنِي مُـــلَدَّدا
أنا مِنْ ساكِنِي سَرُو جَ ذَوِى الدِّين والهُدَى

* * *

قوله : أنشوطة : عُقْدة سهلة تسمِّيها العامة اللّجّ . نفثه : لفظه . الوطر : الحاجة . بثّه : حزنه . ناجتْنى : حدّثتنى . النُّهزة : الفرصة وما أُخِذ بلا تعب أيْد : قُوّة : انتهضت : تقدّمت . مجْثَمى : موضع قُعودى . الشَّهْم : الشّديد النفس . انحرطت : اندفعت بسرعة والانحراط التصميم وركوب الرأس . الأرْوع : السَّيِّد . فاق : زاد على غيره فى الفضل . عِلاج : معاناة وطبّ . مسهَّداً : ممتنع النوم . ملدَّداً : ملتفتاً يميناً وشمالا من شدة الخوف .

* * *

كنتُ ذا ثروةٍ بهـــا ومُطـــاعاً مسوَّدا
مرْبَعى مألف الضُّيُو ف ومالِى لَهُمْ سُدَى

أَشترى الحَمْدَ باللَّهَا وأَقِي العِرْض باجْدَا
لَا أُبَالِي بمُنفِسٍ طاحَ فى البذْلِ والنَّدى
أُوقِدُ النَّار باليَفَا ع إذا النِّكْسُ أَخْمَدا
ويرانى المؤمِّلُو نَ مَلَاذًا ومَقْصِدَا
لَمْ يَشِمْ بارقِ صدٍ فانْثَنَى يَشْتَكِى الصَّدَى
لَا ولَا رَامَ قَابسٌ قَدْحَ زَنْدِى فأَصْلَدا
طَالَمَا ساعَدَ الزَّمَا نَ فأصبَحْتُ مُسْعَدَا
فقضى اللهُ إن يُغَيِّر ما كان عَوَّدَا
بوَّأَ الرُّومَ أَرْضَنَا بعد ضِغْنٍ تولَّدَا
فاستباحوا حَرِيمَ مَنْ صادَفوه موحَّدَا
وحوَوْا كل ما اسْتَسَرَّ بهَا لِي ومَا بَدَا

* * *

ثروة : غنى . مسوَّداً : مقدَّماً للسِّيادة . مربعى : منزلى . مألف : موضع الاجتماع . سُدًى : مهمل . اللّها : العطايا . اليَفَاع : ماارتفع من الأرض . النِّكس : الدنىء . أخمد : أطفأ . المؤمِّلون : الرَّاجون . ملاذ : ملجأ . المقصد : الموضع تقصِده يشِمْ بارق : ينظر برق . صَدٍ : عطش . انثنى : رجع . رام : طلب . قابس : طالب النّار . قدح زندى : استخراج ناره . أصلد : وجَده صَلْداً أى شحيحاً . ساعد : وافق . بوّأ : أى أنزل . ضغن : حقد وعداوة . استباحوا : صيّروه مُبَاحاً حريم : عِيال . موحّد : مُسْلِم . حووا : ضموا . استسرّ : خفى . بدا : ظهر .

تَطوَّحت : تراميتُ على جهالة وألقيتُ بنفسى للهلاك . طريداً : منفيًّا . مشرَّداً مفزّعاً عند الهرب فاراً .

* * *

أَجْتَدِى النَّاسَ بَعْدَما كنتُ من قبلُ مُجْتدَى
وتُرى بِى خصاصةٌ أَتمنَّى لها الرّدى
والبلاءِ الّذى بِهِ شَمْلُ أُنْسِى تَبَدَّدا
اسْتِبَاء ابنتِى الّتى أَسَرُوها لتُفْتَدى
فاستبِنْ مِحْنتِى ومُدَّ إلى نصرتى يداً
وأَجِرْنى من الزما نِ فقد جارَ واعْتَدَى
وأَعِنِّى على فَكا كِ ابنتى من يد العِدَى
فبِذا تَنْمَحِى المآ ثِمُ عمّن تمرّدا
وبه تُقْبَلُ الإنا بَةُ مِمَّن تَزَهّدا
وهو كفّارة لَمَنْ زَاغَ من بَعْدِ مااهْتَدَى
ولئن قمتُ مُنْشِدًا فلقد فهتُ مُرْشِدا
فاقبَلِ النُّصْح والهِدَا يَةَ واشْكُرْ لمن هَدَى
واسْمَح الآن بالّذى يتسَنَّى لتُحْمَدَا

* * *

أجتدى : أسأل . خَصَاصة : فقر . الرَّدَى : الهلاك . شَمْل : مجتمع . تبدّد : تفرّق . استباء ابنتى : أخذها أسيرة . اسْتَبِن : تحقّق وتبين . محنتى :

بلّيتى . جار واعتدى : مال وظلم . وفكّ الرقبة وفَكاكها : تخليصها من أسر الرّق وكذلك الرهن ، وفى الحديث « اعتق النَّسَمة وفكّ الرَّقبة » قيل : أو ليسا واحداً ؟ قال : لا ، عتق النسَمة : أن تنفرد فى عِتْقها ، وفكّ الرقبة : أن تعين فى عِتْقها ، ابن عباس رضى الله عنهما قال النبى صلى الله عليه وسلم : «مَنْ فَدَى أسيراً من أيدى العدوّ ، فأنا ذلك الأسير». تنمحى ، أى تذهب . تمرّد : أكثر الفساد . الإنابة : الرجوع إلى الله تعالى . تزهّد : ترك الرّغبة فى الدنيا زاغ : مال . فُهتْ : نطقت . مرشِداً : دالاًّ على الخير . اسمح : جُدْ . يتسنّى : يتيسرّ . الفنجديهى : كان ابن قَطَرِىّ قاضى ناحية المزار ، بلد عند البصرة قد تاب من الشرب ، ثم نقض التوبة ، وعاد يشرب ، ثم بعد المعاودة حضر مسجد بنى حَرام يوماً بالبصرة ، وتاب ورجع إلى الله تعالى بصِدْق النّية ، وسأل عن كفارة ذنبه ، وكان فى المسجد رجلٌ يزعم أنّه من أهل سَرُوج ، وله بنت مأسورة فى أيدى الكفّار ، فقال لابن قَطَرِىّ : كفارة ذنبك أن تتصدّق علىّ بشىء أفكّها به ، فأعطاه عشرة دنانير ، فلمّا أخذها منه دخل الحانة .

ثم إن الحريرى أنشأ هذه المقامة الحراميّة فى ذلك فقيل له : هى أحسن من مقامات البديع ، فأنشأ أربعين مقامة ، ثم استزادُوه فكمّلها خمسين .

* * *

قال أبو زيد : فلمّا أتممتُ هذْرَمتِى ، وأُوهِمَ المسئولُ صِدْقَ كلمتى أَغْرَاه القَرَمُ إلى الكرَمِ بمواساتِى ، ورغّبه الكَلَف بحملِ الكُلَف فى مُقاساتى ، فرضَخَ لى على الخَافِرَة ، ونَضَخ لى بالعِدَةِ الْوَافِرة . فانقلبتُ إلى وكْرِى ، فرِحاً بنُجْح مَكْرِى ، وقد حَصَلْتُ مِن صَوْغ الْمَكيدَة ، عَلَى سَوْغِ الثَّريدة ، ووصَلْتُ مِنْ حَوْكِ الْقَصِيدَة ، إلى لَوْكِ الْعَصيدة .

قوله: هذرمتى، أى كثرة كلامى. أوهم: أى خُيِّل له. كلمتى، أى قصيدتى. أغراه، أى حرّضه. القَرَم: الشَّهوة. مواساتى: إعطائى. الكَلَف: الحُبّ. والكُلَف: جمع كُلفة وهى ما يُتَكَلَّف من العمل. رضخ: أعطى. على الحافرة، أى عندما أكملت كلامى، والحافرة: أوّل الأمر، وقيل أنّ أصلها فى بيع الفرس، ولرفعة الخيل عندهم كان لا يفارق البائع حافرَ فرسه، حتى يأخذ ثمنه. نضخ: رفع، ونَضْخُ الماء فورانه من منبعه. الوافرة: الكثيرة. وكْرِى: بيتى، وأصْلُه للطائر. صَوْغ المكيدة: صنعة الكيد. سوّغ: بلَع بسهولة. لَوْك: مضغ.

* * *

قال الحارث بن همام: فقلت له: سبحانَ مَنْ أبْدَعَك، فما أعظمَ خُدَعك، وأخْبَث بِدَعَك! فاستغربَ فى الضّحك، ثم أنشد غير مرتَبِكٍ:

عِشْ بالخداعِ فأنت فى دهرٍ بنوه كأُسْدِ بِيشَهْ
وأَدِرْ قَناةَ المكرِ حتّى تَسْتَدِير رَحَا المعيشَهْ
وصِدِ النُّسور فإنْ تَعذَّر صَيْدُها فاقنعْ برِيشَهْ
واجْنِ الثمار فإنْ تَفُتْكَ فرضٌ نَفْسَكَ بالحشيشَهْ
وأَرِحْ فؤادَك إن نَبَا دهرٌ من الفِكَرِ المُطِيشَهْ
فتغايرُ الأحْداث يُؤْ ذِن باستحالة كلِّ عيشَهْ

* * *

أبدعك، أى أوجدك وخلقك. استغرب: أكثر الضحك. مرتبك: مختلط فى كلامه. بيشة: موضع كثير الأسْد. المكر: الخديعة. نبا: ارتفع. المطيشة: المدهشة للعقل. تغاير: اختلاف. الأحداث: النوازل. يؤذن: يعلم. استحالة: تغيّر.

المقامة التاسعة والأربعون - وهي الساسانية

حكى الحارث بن همامٍ قال : بَلَغَنى أنّ أبا زيد حينَ ناهزَ الْقَبْضَة ، وابتزّه قَيْدُ الْهَرَمِ النَّهضَة ، أحضر ابْنَه ، بعد ما استجاشَ ذهنَه ، وقال له : يا بنىّ إنَّهُ قد دَنَا ارْتحالِى من الفِناء ، واكْتحالى بِمرْوَد الفَنَاء ، وأنت بحْمدِ اللهِ ولىُّ عَهْدِى ، وكَبْشُ الْكَتِيبَة السَّاسانيّة مِنْ بَعْدِى ، ومثلُك لَا تُقْرَع لَهُ الْعَصَا ، ولا يُنَبَّهُ بِطَرْق الحْصا ؛ ولكن قد نُدِبَ إلى الإذكار ، وجُعِل صَيْقَلًا للأفكار . وإنّى أُوصِيك بما لم يوصِ به شِيثٌ الأنباط ، ولا يعقوبُ الأسباط ؛ فاحفَظْ وصيّتِى ، وجانب معصيتى ، واحْذُ مِثَالى ، وافْقَهْ أمثالِى ، فإنَّك إن استَرْشَدْتَ بِنُصْحِى ، واسْتَصْبَحْتَ بِصُبْحِى ، أمْرَعَ خَانُك ، وارتفع دُخَانُك ، وإنْ تَنَاسَيْتَ سُورَتِى ، ونبذْتَ مَشُورتى ، قَلَّ رمادُ أثَافِيك ، وزَهِدَ أهْلُكَ ورَهْطُكَ فيك .

* * *

نَاهَز : قارب. الْقَبْضَة ، أراد بها ثلاثاً وتسعين سنة ، لأنك إذا قيل لك: اعقد فى يديك ثلاثاً وتسعين قبضْتَ أصابعك كلها وشدَدْتَ عليها الإبهام ، والمعنى أنه قارب المائة الّتى ليس فى العيش بعدها منفعة ، والشعراء يضمِّنونها أشعارهم إذا وصفوا البخيل بقبْض الكف ، قال الخليل بن أحمد :

وكفٍّ عن الخير مقبوضةٌ كما قبضت مائة سَبْعَهْ

وقال :

فما تِسْعُون تحفرها ثلاث يضمُّ حسابَها رجل شديدُ
بكفّ خرقةٍ جُمِعَتْ لِوَجْءٍ بأنكدَ مَن عطائك يا يزيدُ

وابتزَّه : سَلَبَه . الهرَم : كِبرُ السّن . النّهضة : القيام إلى ما يريد .

ودخل هشام بن عبد مناف وقد أسنّ على فتية من قومه فقاموا إليه إجلالا، وأجلسُوه فى أرفع موضع ، فقال : بارك الله فيكم ، إن بنى مرّة كانوا إذا شاخ عندهم الرجل قيَّدُوه وقالوا له : ثبْ ، فإن وَثب أحبّوه ، وقالوا : فيك بقية ، وإن لم يَثِبْ قالوا : ليس فى هذا منفعة فقتلوه ، وقال ابن الرومى :

لو أنّ عمرى مائةٌ هَدَّنِى تذكُّرى أنّى تنصّفتُها[1]
لهفى على خمسينَ عاماً مضت كانت أمامى ثم خلّفتُها

استجاش : استجمع وحَشد . الفِناء : ما حول الدار . والفَنَاء بالفتح : الموت . الكتيبة : الجيش . وكَبْشُها : رئيسها وحاميها . والّذى كانت العصا تُقْرَع له عامر بن الظَّرِب العَدْوانىّ حكيم العرب فى الجاهليّة ، ولما أسنّ كان يَزِلُّ فى حكمه ، وكانت له بنت حكيمة ، فأمرها أن تقعد وراء سِتْر لتنظر حكمه ، فإذا أنكرتْ منه شيئاً قرعَتْ له العصا ، فمتى سمع صوت قَرْعِها علم أنه زلّ ، فرجع . وقيل : قُرِعت لأكثم بن صيْفىّ ، وقيل لسعد بن مالك الكنانىّ ، وقيل لعمرو بن حُمَمَة الدَّوسى .

وخطَب صعصعه بن معاوية إلى عامر بن الظَّرِب بنتَه عَمْرة ، وهى أم عامر ابن صعصعة ، فقال : يا صعصعة إنك تشترى منّى كبِدى ، فارحم ولدى ؛ قبلتُك أو رددتُك . والحسيب : الرجل الصالح أباً بعد أب ، وقد أنكحتك خشية ألّا أجد مثلك ، أفرّ من السرّ إلى العلانية ، يا معشر عَدْوان أخرجت من بين أظهركم كريمتَكم من غير رهْبَة ، لُقسم لولا قسمة الحظوظ على الجدود ما ترك الأوّل للآخر ما يعيش به ، وفيه يقول المتلمس :

(١) ديوانه ١ : ٣٦١

لذِى الحِلْمِ قَبْل اليوم ما تُقْرَع العصا وما عُـــلِّم الإنسان إلا ليعْلَمَا[1]

وهو أوّل مَنْ جلس على المنبر وتكلّم ، وفيه يقول الأسود بن يعفُر :

ولقد علمتُ لو أنَّ علمى نافعٌ أنَّ السبيل سبيل ذى الأعواد[2]

قال الأصمعىّ : نزلت عَدْوان ماء، فأحصى عليه سبعون ألف غلام أغرل[3]، سوى مَنْ كان مختوناً لكثرتهم ، ثم وقع بأسُهم بينهم ، فتفانَوْا ، فقال ذو الإصبع العَدْوانِىّ :

عذير الحىّ من عَدْوَا نَ كانُوا حيَّة الأرْضِ[4]

بغى بعضٌ على بعضٍ فلم يُبْقوا على بَعْضِ

ومنهم مَنْ يجـيز النا س بالسُّنّة والفرْضِ

ومنهم حَكَمٌ يقضِى فلا يُنْقَض ما يقضِى

الحكم: عامر بن الظرِب ، والذى كان يجيز النّاس فى الحجّ منهم رجل كان يسمى أبا سيارة ، أجاز الناس على حمارٍ له أسود ، من المزدَلِفة إلى مِنى أربعين عاماً، فقيل فى المثل: أصحّ من عير أبى سيارة[5]، وكانت إجازته أن يقول : اللهم حَبِّب بين نسائنا وبغِّض بين رعائنا ، واجعل المال فى سُمحَائنا ، أوفُوا بعهدكم، وأكرموا جارَكمْ واقرُوا ضيفكم ، ثم يدفع فيقول :

خَلّوا الطريقَ عن أبى سَيَّارَهْ وعن مواليـــه بنى فَزَارَهْ

* حتى يجيز سالماً حماره *

ثم يقف فيقول : أشرق ثبير ، كيما نغير . وكانت الإجازة قبلَهم فى خُزاعة. فغلبتْهم عليها عَدْوان. ولا تقرع له العصا مثل، يُضْرب لمن وافق صاحبَه وساواه .

(١) ديوانه ٢٦
(٢) المفضليات ٢١٦
(٣) الأغرل : الأقلف .
(٤) الأغانى ٣ : ٧٩ (٥) مجمع الأمثال ١ : ٤١٠

ولما خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم خديجة رضى الله عنها قال عَمُّها : مثل محمد لا تقرَع له العصا ، وأصل ذلك أن الناقة الكريمة إذا أتاها فحل غير كريم منعوه عنها ، وقرَعُوه بالعصا على أنفه . وفى المثل : إن العصا قُرِعت لذى الحلم .

قوله : ولا ينبَّه بطَرْق الحصا ، كانت العرب إذا أرادت اختبار الرجل : هل يصلح للسفر والغارة ؟ ترك الرجل صاحبَه حتى ينام ، فيأخذ حصاة فيرمى بها إلى جانبه ، فإن انتبه توثّق به .

وخرج أبو كبير الهذلى ومعه تأبّط شرًّا للغارة ، فلما جَنّ الليل أووْا إلى موضعٍ لينامُوا فيه ، فتركه أبو كبير حتى نام ، فرمى إلى جانبه بحصاة ، فساعة مَسَّت الأرض وثَب ثم عاد إلى نومه ، ففعلها ثلاثاً فكان ينتبِه لوقوعها ويثب ويجول يطلب لها رامياً ، فلا يجد إلا أبا كبير نائماً ، فقال له عند الثالثة : والله لئن عُدْتَ لأقتلنّك ، فإنه ليس هنا مَنْ يفعل هذا غيرك ، فضحك أبو كبير وقال : أردت اختبارك ، ثم ذكر القصّة فى قصيدته التى يقول فيها :

وإذا رمَيْتَ له الحصاة رأيتَه ينزُو لوقعتها طُمُورَ الأخيلِ (١)

يريد أن ابنه كان فوق هذا فى ذكاء القلب فهو كأنه منتبه أبدا .

وطَرْق الحصا أيضاً من فِعْل الكُهّان يأخذ الكاهن حصياتٍ ، فيضرب بها الأرض وينظر فيها فيخبر بالمغيّبات .

قوله : نُدِب ، أى دعى وحُرِّضَ . الإذكار : التذكير بما يفعل . الأفكار : الأذهان .

شيث هو ولد آدم عليه السلام ، وكان أجلَ بنيه وأحبَّهم إليه ، وهو وصىُّ أبيه وإليه ترجع الأنساب ، وقال صلى الله عليه وسلم : أربعة من الأنبياء سريانيون : آدم وشيث وإدريس — وهو أخنوخ — ونوح ، وأنزل الله تعالى على شيث خمسين صحيفة . وقال بقية بن أرطأة : بلغنى أن حوّاء حملتْ بشيث الرّضا حتى

(١) ديوان الحماسة — بشرح التبريزى ١ : ٨٧

نبتتْ أسنانُه ، وكانت تنظر إلى وجهه من صفائه فى بطنها . وهو الثالث من ولد آدم ، وإنه لمّا حَضَرها الطَّلْق أخذها عليه شدّة ، فانقبذتْ به ، فلما وضعته أخذته الملائكة ، فمكث معهم أربعين يوماً ، فعلّموه المِهن ، ثم ردُّوه إليها معلّما . والمهن جمع مِهْنة ، وهى الخدمة .

الأنباط ، قيل : سمُّوا أنباطاً لاستنباطهم البناء ، واستخراجهم المياه ، والنسابون يزعمون أنهم ولد يافث بن نوح ، ولا يصحّ على هذا أن يوصيَهم شيث ، لأنّ بين زمن شيث وزمن يافث آلافاً من السنين . الجوهرىّ : النبيط والنَّبَط : قوم كانوا ينزلون بين البَصْرة والكوفة والجمع أنباط ، والرّجل نَبَطِىّ . ابن دريد : النَّبَط . جيلٌ من الناس معروف ، وهم النّبط والأنباط . والأسباط : بنو يعقوب عليه السلام ، ومنهم تشعَّبَتْ قبائل بنى إسرائيل ، والأسباط فى ولد يعقوب كالقبائل فى ولد إسماعيل .

احذُ مثالى ، أى امش على طريقى وافعل بفعلى . استرشدْت : استدللت . استصبحت : استضأت . أمرع : أخصب . الخان : الفندق ، وهـذا مثل لرفاهة العيش . نَبَذْت : طرحت . الأثافىّ : أحجار القِدْر . زهِد : لم يرغَبْ .

* * *

يابنىّ ؛ إنّى جَرّبتُ حَقائق الأمور ، وبَلَوْتُ تصاريفَ الدُّهور ؛ فرأيتُ المرء بنَشبِه ، لا بِنَسَبِه ، والْفَحْصَ عن مَكْسَبِه ، لا عَنْ حَسَبِه . وكنتُ سَمِعْتُ أن المَعايش : إمَارَة ، وتجارة ، وزِراعة ، وصِناعَة ، فمارَسْتُ هذه الأرْبَع ، لأنْظُرَ أيُّها أَوْفقُ وأنفَع ، فما أحمَدْتُ مِنْهَا مَعِيشة ، ولا استَرْغَدْتُ فيها عِيشة ، أما فُرَصُ الْوِلَايَات ، وخُلَسُ الإمَارَاتِ ؛ فَكأَضْغاثِ أحْلَامٍ ، والْفَيْءُ الْمنتَسَخ بالظّلام ؛ وناهيكَ غُصَّةً بمرارة الفِطَام . وأما بَضَائع التِّجارات ، فعُرْضَةٌ للمخاطَرَاتِ ، وطُعْمةٌ لِلْغارَاتِ ،

وما أشبهها بالطيور الطيارات . وأما اتخاذ الضياع، والتصدّى للازدراع، فمنهكة للأعراض ، وقيود عائقة عن الارتكاض ، وقلّما خلا ربّها عن إذلال ، أو رزق روح بالٍ ، وأما حرف أولى الصّناعات ، فغير فاضلة عن الأقوات ، ولا نافقة فى جميع الأوقات ، ومعظمها معصوب بشبيبة الحياة . ولم أر ما هو بارد المغنم ، لذيذ المطعم ، وافى المكسب ، صافى المشرب ، إلّا الحرفة التى وضع ساسانُ أساسها ، ونوّع أجناسها

* * *

بلوت : اختبرتُ . نشبه : ماله . الفحص : البحث ، والأربع التى ذكر نسبها الثعالبى للمأمون قال : قال لى المأمون : النّاس أربع طبقات بين إمارة وتجارة ، وزراعة ، وصناعة ، فمن لم يكن منهم كان كلاًّ علينا . مارست : خالطت . أحمدت : صادفتها محمودة . استرغدت: استكثرت. فُرَص : نُهز ، والنُّهزة والفرصة ما يحضرك من الفوائد من غير أن تتعنّى فى طلبها ، فإن فوّتّها ولم تغتنم أخذها ففاتتك ، فربما تتعنّى غاية التعنّى فى طلبها ، فلا تظفرْ بها . الجوهرى: الفرصة . النّوبة والشّرب، يقال : وجد فلان فرصةً، أى نُهزة، وجاءت فرصتُك من الشىء ، أى نوبتك . خُلَس : جمع خُلْسة ، وهى كالخطف وشِبْهه، يريد أن الأمير كأنه اختلس أيامه، أى اختطفها لقصر مدّتها ، ويقال: الخُلْسة . فرصة . وأضغاث الأحلام : أباطيلها التى لا يصحّ تأويلها لاختلاطها . والضِّغث : كلّ ما كان مختلطاً لا حقيقة له ، والحُلُم: الرؤيا والجمع أحلام . ويقال: هذا رجل ناهيك من رجل! ونِهيُك من رجل ، أى إنه نجدة وعناية ينهاك عن تطلّب غيره ، فناهيك: كافيك . الغُصّة : ما يختنق به . الفِطام: قطعُ الرّضاعة عن

الصبيّ ، وفى الكلام معنى التعجّب كأنه قال : ما أنكد غصة العزْل على أهل الولايات، والعزل للولاة كالحيض للنساء. والبضائع : الأموالُ يتّجر فيها . عرضة للمخاطرات ، أى معرضة للضّرر والسلْب ، وفلان عُرْضة لكذا ، أى نُصبٌ ، وهو له عُرْضة ، أى يتعرّض له دونه ، وهذا عُرْضة لك ، أى عُدّة . وقال النقاش فى قوله تعالى : ﴿عرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾ أى علة لها وسبباً ومتّخذاً لذلك ،وأصل العُرْضة : الدابة تتّخذ للسفر لقوّتها ، ثم جعل كل ما صلح لشىء عرضة له ، حتى قيل : المرأة عُرْضة للزوج . والطُّعمة : المأكلة ، وهذه الضَّيْعة طعمة لفلان ، والطعمة أيضاً: وجه المكتسب ، فطعمة للغارات ، يريد أن قُطّاع الطرق يسلبون أموالَ التّجار أبدا فأرزاقهم معرّضة للتلف . التصدّى: التّعرّض. منهكة : مذلّة وسبب نَهْك ، وهو الجهد والضّعف ، ونهكته الحمى وأنهكته ، إذا جهدته وأضنته ونقصتْ لحمه، ونَهَكه السلطانُ عقوبةً: بالغ فى عقوبته. رَوْح بال : راحة قلب . عائقة : حابسة . الارتكاض : الجرْى والتصرّف وهذه مشاهدة من أحوال أهل الحرْث وقال صلى الله عليه وسلم حين رأى السّكة : «مادخلتْ قطّ دارَ قوم إلا ذَلّوا» . وقال صلى الله عليه وسلم فى الإمارة: «ستحرصون على الإمارة ثم تكون حسرة وندامة ، فنعمت المرضعة وبئست الفاطمة » .

والحِرْفة: الصنعة : فاضلة : زائدة . معصوب : مربوط ، والعصْب الفتْل الشديد ، يريد أنّ الصنعة يُنْتَفَعُ بها ما دام صاحبها شابًّا قويًّا فإذا شاخ لم يقدر على الانتفاع بها . قوله: بارد المغنم ، أى السهل منه ، وهوالذى يؤخذ بغير قتال .

ساسان : شيخ المكدين والغرباء ، وهم بنو غَبْراء . والغبراء : الأرض ، وسُمُّوا بنى غَبْراء لقطعهم جهات الأرض وجَوَلَانهم فى البلدان ، فكأنهم ليس لهم أصلٌ يُنْسَبون إليه إلا الأرض. وقيل: سُمُّوا بذلك للزومهم لغبراء الأرض وهو وجْهها وترابها والرقاد فيها فيُعَيّرُون بذلك ويتغيّرُون .

وكان الأحنف العكبرىّ[1]، وهو أبو الحسن عقيل بن العكبرىّ، كان فصيحاً شاعراً، وذكر الصاحب فيه فصلا وهو: ولو أنشدتُك ما أنشدَنيه الأحنف العكبرىّ، وهو فردُ بنى ساسان اليوم فى مدينة السلام فى الفصاحة وحسن الطريقة فى الشعر لامتلأتَ تعجُّباً من ظَرْفِه وإعجاباً بنظمه، ومن افتخاره قوله:

على أنى بحمـــد الله فى بيتٍ من المجـــدِ
وإخـــوانى بنو ساسا ن أهل الجِدّ والجَدِّ
لهم أرض خُراسا ن فغَسَّان مـــع اللَّدِّ
إذا ما أعوز الطّرق على الطُّرّاق والجُنْدِ
حذاراً من أعاديهمْ من الأعْرَاب والكُردِ
قطعنـــا ذلك النهجَ بلا سَيْفٍ ولا غِمْـــدِ
ومَنْ خاف أعاديه بنا فى الرَّوْع يَسْتَعْدِى

فى هـذا البيت معنى بديع، يريد أن ذوى الثروة وأهل الفضل إذا وقع أحدهُم فى أيدى العداة وأراد التخلّص قال: أنا مكدٍ، فبنى الحريرى هذا الموضع من مقامته على شعر الأحنف، وأكثر هذه المقامة مأخوذ من مُلَحِه، ومن هذا الشعر:

وقالوا قد سلا عَنْـــكَ وقد حالَ عن العَهْدِ
ولا والله ما حُلْتُ ولكنْ قلّ ما عِنْدى

ومن شعره:

عشت فى ذلة وقـــلّة مالٍ واغترابٍ فى معشرٍ أنذالِ
بالأمانى أقول لا بالمعـــانى فغذائى حـــلاوةُ الآمالِ
لى رزق يقول بالوقف فى الـــرَّأْى ورجْلٌ تقول بالاعتزال

(١) الأحنف العكبرى، له ترجمة فى اليتيمة ٣ : ١٠٤ — ١٠٦، أورد فيها كثيراً من شعره.

وله :

العنكبوت بنتْ بيتاً على وَهنْ تأوى إليه ومالى مثله وَطَنْ
والخنفساء لها من جنسها سكَنْ وليس لى مثلها إلفٌ ولا سكنْ

وله :

نرى العقيان كالذهب المصفَّى يركب فوق أثفار الدّواب
وكيسى منه خلوٌ مثل كفّى أمَا هذا من العجب العجابِ !

وله :

رأيت فى النَّوم دنيانا مزخرفةً مثل العروس تراءتْ فى المقاصير
فقلت جُودى فقالت لى على عجلٍ إذا تخلَّصْتَ من أيدِى الخنازيرِ

* * *

وأضْرم فى الخافِقيْن نارَها ، وأوْضَح لبنى غَبْراءَ مَنارَها ، فشهدتُ وقائعَها مُعْلِماً ، وَاخْتَرتُ سِيماَها لِي مِيسَما ؛ إذ كانت المتْجرَ الَّذِى لَا يَبُورُ ، والمنْهَلَ الَّذى لا يَغُورُ ، والمصباحَ الذى يَعْشُو إليه الجمهور ، ويَسْتَصْبِحُ به العُمْىُ والْعُور . وكان أهْلُها أعزَّ قبيلٍ ، وأسْعَدَ جِيلٍ ، لا يَرْهقُهم مسُّ حَيْف ، ولا يُقْلِقهم سلُّ سَيْف ، ولا يخشَوْن حُمَةَ لَاسِع ، ولا يَدِينُون لدانٍ وَلَا شاَسِع ولا يَرْهَبُونَ مِمَّنْ بَرَق ورَعَد ، ولا يحْفِلون بمنْ قام وقَعَد ؛ أنديتُهُمْ منزَّهَة ، وقُلوبهم مُرَفَّهَة ، وطُعَمُهُمْ مُعَجّلة ، وأوقاتُهم غُرٌّ مُحجّلة ، أينَمَا سَقَطُوا لَقَطُوا ، وحيثما انْخَرطُوا خَرَطوا ، لا يتَّخِذُون أوْطَاناً ، ولا يَتَّقُوْن سُلْطاناً ، ولا يمتازون عمّا تَغْدُو خِماصاً ، وتَرُوح بِطَاناً .

* * *

قوله : أضْرَم ، أى أوقد . الخافقين : المشرق والمغرب . أوضح : بَيّن . مَنَارها : سِرَاجَها . مُعلَماً : مشهوراً . سماها : علامتها ، يريد أنه اختار علامَتَهُم لنَفْسِه . يَبُور : يَكْسَد ويهلِك أهلَه . المنهل : موضع الماء . يغور : يغوص فى الأرض . يعشو : ينظر . الجمهور : معظم الشىء . الغُور : جمع أغور . الجيل : أهل العصر . يُرْهقهم : يدركهم ويغشاهم . حيْف : جَوْر وظلم . حُمَة : سم . لاسع : ضارب . واللّسع : الضرب بمؤخره ، مثل العقرب ، واللّدغ لما كان بالفم ، ولَسَعه بلسانه : عابه وآذاه ، ورجل لُسَعة ولسَّاعة ولَسّاع ، أى عيّابٌ مؤذٍ . يدينون : يطيعون . دانٍ وشاسع : قريب وبعيد . يرهبون : يخافون . بَرَق ورعد : هدّد وخوّف . يحفلون : يبالون . مَنْقام وقعد : من غيظه وشره . انخرطوا : ركبوا رءوسهم ، واندفعوا بشدّة ، وخرطت الغصنَ ، إذا وضعتَ يدك عليه ثم تجرّه عليك فيسقط ما فيه من وَرَقٍ وثمر . أنديتهم : مجالسهم . مرفّهة : الرفاهية : العيش اللّين . غُرّ : بيض . محجّلة : مشهورة . سقطوا : وقعوا . لقطوا : جمعوا الرزق ، وأصله للطّير . يمتازون : يفترقون . خِماصاً : جياعاً . بِطاناً : شباعاً وهى للطير ، وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لو أنكم توكّلتم على الله حقّ توكله لرزقكم كما يرزق الطير تَغْدُو خِماصاً وتَرُوح بِطَاناً » .

* * *

فقال له ابنه : يا أبتِ لَقَدْ صَدَقْتَ ، فيما نَطَقْتَ ؛ وَلَكِنَّكَ رَتَقْتَ ، وَمَا فَتَقْتَ ؛ فبيِّن لِي كَيْفَ أَقْتَطِف ، ومِنْ أَيْنَ تُؤْكَلُ الْكَتِف ، فَقَالَ : يا بَنَيّ إنّ الارْتِكاضَ بَابُهَا ، والنَّشَاطَ جِلْبَابُهَا ، والْفِطْنَةُ مِصْبَاحُهَا ، والْقِحَةَ سِلَاحُهَا ، فَكُنْ أَجْوَلَ من قُطْرُب ،

وأسْرَى من جُنْدُب، وأنْشَطَ من ظَبْيٍ مُقمر، وأسْلَط من ذئبٍ مُتَنَمِّر، واقْدَحْ زَنْدَ جَدّك بِجدّك، واقرعْ باب رَغْبِك بِسَعْيِك، وجُبْ كُلَّ فَجٍّ، ولِجْ كلّ لُجّ، وانْتَجِعْ كُلَّ رَوْض، وألقِ دَلْوَكَ فى كلِّ حَوْض، وَلَا تَسْأَمِ الطَّلَبَ، ولا تَمَلَّ الدَّأَبَ، فقد كان مكتوباً على عَصَا شيخِنا سَاسَانَ: مَنْ طلَب، جَلَبَ، ومَنْ جَالَ، نَالَ. وإيّاك والكسلَ، فإنه عُنْوان النُّحوس، ولَبُوسُ ذَوِى البُوس، ومِفْتَاحُ المَتْرَبَة، ولِقَاحُ المَثْعَبة، وشِيَمةُ العَجَزَةِ الجَهَلة، وشِنْشِنَةُ الوُكَلة الثُّكَلة، وما اشتار العَسل، من اختار الكسل، ولا ملأَ الرَّاحة؛ مَن اسْتَوْطَأَ الرّاحة.

* * *

قوله: رتَقْت، أى ألحمت وسدّيت، وهو ضدّ فتقْت، تقول: رتقت الشيء، إذا ضممتَ بعضَه إلى بعض، وفتقتُه: نقضْتَه. أقتطف: أجنى الثمر، وهذا مثل قوله: مِنْ أينَ تُؤكَل الكتف، قالوا: تؤكل من أسْفَلِها، لأن المرقةَ تدخلُ بيْنَ عِظَامها ولحمها، فمن أكلها من أعلاها جرت المرقةُ عليه، ولفظ المثل على ما ذكره أبو عبيد: فلان أعلم من حيثُ تؤكل الكتف، يُضْرَب مثلا لمن جرّب الأمور ودَرَى تصرّفها، قال البكرى: إن لحم الكتِف إذا أُكِل من أعلاه تناثر، وإذا أُكل من قِبَل الغُضروف، لم يتأتّ لآكله. والغُضْرُوف: اللحم الرَخْص المتّصل بأسفل الكتف المتّسع، وقيلَ: أكل الكتِف، إذا أمسك فيها بطرف الغُضْرُوف ربما سقطت فتربَتْ، وإذا أمسكها بالطرف الآخر أمِن من ذلك.

الفنجديهى: لحم الكتف إذا جُذب من الجانب الأسفل انقطع بكليته، وإذا جذب من الجانب الأعلى تقطّع اللحم ولم ينقطع، لأنَّ المرقة تجرى بين لح

الكتف والعظم ، فإذا أخذتَه من أعلاه تصببت المرقة عليك بسرعة ، وإذا أخذت اللحم من أسفله تقشّر من عظمها فلم تنصبّ المرَقة بالسرعة ، وهو مثَل يُضرب للبصير بالأمور ، وقال أوس بن حجر :

أم دلّكمُ بعضُ مَنْ يرتاد مشتمتى بأىّ أكلة لحم تُؤْكلُ الكتِفُ[1]

يقول : أنا أعلم كيف أنالكم .

وقال آخر :

إنّى على ما ترَوْن من كِبَرِى أعلم من أين تُؤْكَلُ الكتفُ

قطرب : دويبّة تجول اللّيْلَ كلّه ولا تنام ، ويقال فيه أيضاً : أسهر من قُطْرب ، وهذا قول أبى عمرو ، وغيرهُ يرويه : أسْعَى من قُطْرب ، لا أسهر ، ويقول: هو دويبة لا تستقرّ بالنهار، ويحتجّ بقول ابن مسعود: لاأعرفنّ أحدَكم جيفةَ ليلٍ قُطْرُبَ نهار . وقُطْرُب اسم رجل مشهور ، وهو ابن المستنير صاحب المثلّث ، وكان من أهل العربية فجلس لسيبويه يناظره ، فلما رآه سيبويه قد قد احتدّ بالسؤال قال : إنك لقطرب ليلٍ ، فسمِّىَ بذلك ، والقُطْربُ أيضاً ذكر الغيلان . ابن ظفر ذكر مَنْ يعوّل عليه أنه حيوان يكون بالصعيد من أرض مصر ، يظهر للمنفرد من الناس ، فربما صدّه عن نفسه إذا كان شجاعاً وإلّا لم ينته حتى ينكحه ، فإذا أنكحه تدوّد دُبرُه وهلك . قال : وهم إذا رأوْا من ظَهَر له القطرب قالوا : أمنكوح أم مروّع ، فإن قال : منكوح يئسوا منه . وإن قال : مروّع سكّنوه وعالجوه . قال : فقد رأيتُ أهلَ مصر وما بين يديْها وما خلفها، وتحقّقت أهل صعيدها والعربان، وهم مستوون فى الجهل بهذا الحيوان ، ومختلفون الاختلاف الشديد فى فعله وصورته ، إلّا أن أهل مصر أكثر لَهجاً به ، والقطارب أيضاً : صغار الكلاب .

(١) ديوانه ٧٦

قوله: أسْرَى ،أى أمشى بالليل . الجندب :ذكر الجراد ، وقيل: هى دويبّة تشبه الجراد ذات جناحين ، فلا تزال ترمح ، ولفظ المثل : أسْرَى من جراد . مقمر : لاعب فى القمَر . وأنشط : أخفّ ، والظبى يأخذه النشاط فى الليلة المقمرة فيلعب. متنمِّر : متشبه بالنَّمِر وهو سَبُعٌ مؤذ .جَدّك : حظّك. اقرع: اضرب. رَعيك : أكلك ، وأراد بباب رعيك الذى يجيئك منه الرزق . ألق دلوك إلى كل حوض: لفظ المثل « ألق دلوك فى الدلاء » ، يضرب فى بذل الجهد فى اكتساب المال والبحث عليه ، وهو كما قال الشاعر :

وليس الرزق عن طلب حثيث ولـكن ألقِ دلوك فى الدلاء[1]

تجئك بملئهـا طوراً وطوراً تجئك بحمأةٍ وقليـــل ماء

قوله : فقد كان مكتوباً على عصا شيخنا ساسان . الفنجديهى قرأت فى بعض الفوائد أنه كان مكتوباً على عصاساسان.المكدى: الـكسل شؤم، والتميز مذموم، والحركة بركة، والتوانى هَلَـكة. وكلبٌ طائف: خير من أسد رابض. ومَنْ لم يغترف : لم يعتلف . جال : تصرّف ومشى فى البلاد . نال : أدرك حاجته . عنوان : دليل . النحوس : جمع نَحْس ، وهو ضدّ السّعد . ذوى البؤس : أهل الفقر . لقاح المتعبة ، أى أصلها وسببها . شيمة : طبيعة ، وكذلك الشنشنة . الوكُلَة التُّـكلَة : هو العاجز الذى يَـكلُ أمره لغيره ويتّـكل عليه فيه . اشتار : حرّك واستخرج . الراحة الأولى : الـكفّ ، والثانية ضدُّ التعب .

وعليك بالإقدام ، ولَوْ على الضِّرعام ، فإنَّ جَراءة الجَنان ، تُنْطِق اللّسان ، وتُطْلِق العِنَان ، وبها تُدْرك الحظوة ، وتُمْلَك الثَّرْوة ، كما أن الخَوَر صِنْوُ الـكسل ، وسَبَبُ الفشل ، ومَبْطأةٌ للعمل ، ومَخْيَبةٌ للأَمَل ، ولهذا قيل فى المثل : مَنْ جَسَرَ ، أَيْسر ، ومَنْ هابَ ، خاب .

(١) لأبى الأسود الدؤلى ، جمهرة الأمثال ١ : ٧٤ ، وديوان أبى الأسود ٥٣

ثمّ ابرُز يا بنيّ فى بكورِ أبى زاجرٍ، وجراءة أبى الحارث، وحَزَامَةِ أبى قُرَّة، وخَتْلِ أبى جَعْدة، وحِرْصِ أبى عُقْبة، ونَشَاطِ أبى وَثّاب، ومَكْر أبى الحُصَيْن، وصَبْرِ أبى أيّوب، وتَلَطُّف أبى غَزَوَان، وتَلَوُّن أبى بَرَاقش، وحِيلَةِ قَصِير، ودَهَاءِ عمرو، ولُطْف الشعبىّ، واحتمال الأحنف، وفِطْنَةِ إياس، ومَجَانةِ أبى نُوَاس، وطَمَع أشْعَب، وعَارِضَة أبى الْعَيْنَاء.

* * *

الإقدام: الجراءة. الضرغام: الأسد. والجراءة: الشجاعة. والجَنان: القلب. والحُظْوة: المنزلة الرفيعة، والثروة: الغنى. صنو: أخ. الفشل: الضعف والحيرة، يريد أن فَزَع النفس وضعفَها يخيّب الأمل والرجاء، وقال معاوية: الهيبة مقرونٌ بها الخيبة.

أبو زاجر: هو الغراب، سُمّى بذلك، لأن العرب تَزْجُر به وتتشاءم، وتقدّم ذلك، ومن وصيته لولده على ألسنتهم، قالوا: قال الغراب لابنه: يا بنيّ إذا رميت فتلوّص أى تلوّ، قال: ياأبت أنا أتلوّص قبل أن أرمى. وقال لابنه وقد رأى رجلا فوّق سهماً: يا بنيّ اتّئد، حتى تعلم مايريد الرّجُل، فقال: يا أبت، الحذَر قبل إرسال السهم.

وأبو الحارث: الأسد كنّى بذلك لاحترائه، أى لاكتسابه بقوّته.

وأبو قرّة: الحرباء كنّى بذلك لأنّ البرد لا يفارقه، فالحرباء تدور لذلك مع الشمس حيثما دارت، وتقدّم حزامتُها، ومرّ أنها لا تفارق ساقَ الشجرة حتى تمسك ساق الأخرى.

وأبو جعدة : كنية الذئب ، وهى كنية بالضدّ لأنّ جعدة عندهم الشّاة ، ولما كان الذئب يقتلها حيث وجدَها جعلوه أباها بضدّ ما يفعل الأب الذى لا يقال له أب إلا لوجود الرحمة عنده على بنيه ، ونحوها قولهم للأسود : أبو البيضاء . والختل : المكْر .

وأبو عقبة الخنزير ، زمن حرصه أنه يمشى بالليل وبالأسحار لطلب ما يأكل ، ويستتر بالنهار حرصاً على السّلامة .

وأبو وثاب : الظّبْى ، وكنّى بذلك لسرعة وثبه .

وأبو الحصين : الثّعلب ، وهو أكثر الحيوان مكراً ، ومن بعض مكره أنّه إذا رأى الغلَبة تماوت فلا تشكّ فى أنه ميّت ، فإذا وقع له غير عارف تركه فما يمرّ يسيراً حتى يقوم فارًّا أو تحصينه يبصل العنصل من الذئب ، لأن الذئب لا يطؤه فى زعم قوم ، وقالوا : إنّ الضبُع صادت ثعلباً ، فقالت : أخيّرك يا ثعلب بين خصلتين ، فقال : ما هما ؟ فقالت : إما أن آكلك وأما أن أكلّك ، فقال لها الثعلب : أما تذكرين يوم نكحتُك ؟ فقالت : متَى ؟ فانفتح فوها وانفلت الثعلب ، فذكروا ذلك مثلا ، وقالوا : ضرب عليه خصلتى الثعلب ، وقالوا : إن الثعلب اطّلع فى بئر وهو عاطش وعليها رشاء فى طرفيه دلوان ، فقعد فى الدلو العليا فانحدرت ، فشرب ، فجاء الضبُع فاطلعت فى البئر ، فأبصرت القمر فى الماء منتصفاً والثعلب قاعد فى قعر البئر فقالت له : ما تصنع هنا ؟ فقال لها : إنى أكلت نصف هذه الجبنة وبقى نصفها لك فانزلى فكليها ، فقالت : وكيف أنزل ؟ قال : تقعدين فى الدّلْو فقعدت فيها ، فانحدرت وارتفع الثعلب فى الدلو الأخرى فلمّا التقيا فى وسط البئر قالت له : ماهذا ؟ قال : كذا التّجار ، نختلف ، فضربت بهما العرب المثل فى المختلفين ، وأوصاف مكْره كثيرة .

وأبو أيوب : الجمل سُمّىَ بذلك لأنه أصبر الدوابّ على العطش والجوع

وقطع الأشهر بالسير المتصل ونقل الأوقار ، ومهما كان به شيء من قوّة تجلّد ، فإذا وقف عُلِم أنه ليس فيه بقية ينتفع بها .

وأبو غزوان الهرّ لغزوه الفئران وخشاش الأرض وتلطّفه يظهر فى محاولاته لتصيد الفأر فإذا قدمت المائدة : قرُبَ منها وأخذ يتلطّف فى صياحه ويتضرّع ويحتكّ بالمائدة أو بالأكل حتى يعطَى .

وأبو براقش : طائر أغبر أوسطه أحمر ، وإذا انتفض تلوّن ألواناً .

أخذ الحريرىّ هذا الفصل من كلام العلماء، قالوا: ابن آدم هو العالم الكبير الذى جَمَع الله تعالى العالم كلّه فيه فكان فيه بَسالة الأسد وصبر الجمل وحرْص الخنزير وحَذَر الغراب وَروَغَان الثعلب ؛ وضرع السِّنَّور ، وحكاية القرد وجُبْن الصقر .

قيل لرجل من كبار العلماء وكان بليداً سريع النّسيان فى ابتداء تعلّمه : بم أدركتَ العلم مع بلادتك وكلل خاطرك ؟ قال: ببكورٍ كبكور الغراب وصَبْرٍ كصبر الجمل وحِرْصٍ كحرص الخنزير .

* * *

واخْلُبْ بِصَوْغ اللّسان ، واخْدَعْ بِسِحْرِ البيان ، وارْتَدِ السُّوقَ قَبْلَ الْجَلَب ، وامْتَرِ الضَّرْعَ قَبْلَ الْحَلَب ، وسائِلِ الرُّكْبان قَبْلَ الْمُنْتَجَع ، ودمِّثْ لِجَنْبِكَ قَبْلَ الْمُضْطَجَع ، واسْحَذْ بصيرتَك للعيافة ، وأَنْعِمْ نَظَرَك لِلْقِيافَة ،فإنّ مَنْ صَدَقَ توسُّمُه ،طال تَبَسمُهُ،ومَنْ أخطأتْ فِراستُه أبطأتْ فَريستُه .

وكُنْ يا بُنيّ خفيف الْكَلّ ، قليل الدّلّ ، رَاغِباً عن الْعَلّ ، قانعاً من الْوَبْل بالطّلّ . وعظِّمْ وَقْعَ الحقير ، واشْكُرْ على النَّقير ، ولا تَقْنَط عِنْد الردّ ، ولا تَسْتَبْعِد رَشْحَ الصَّلْد ، ولا تيْئَسْ مِنْ رَوْح اللهِ ، إنه لَا يَيْئَسُ من رَوْح اللهِ إلّا القومُ الْكَافِرُونَ .

وإذا خيِّرْتَ بَيْنَ ذَرَّةٍ مَنْقودة ، ودُرّةٍ مَوْعودة ، فمِلْ إلى النّقد ، وفضِّلِ اليومَ على الْغد ، فإنَّ للتأخيرِ آفاتٍ ، وللعزائم بَدَوات ، وللعِداتِ مُعَقّبات ، وَبَيْنها وبين النَّجازِ عَقَبات وأىّ عَقَبات .

* * *

قوله: اخْلُب بصوْغ اللسان، أى بعذوبة الكلام ، قال ابن كناسة الشاعر: كنت أتكلم بكلام فلو لم يجدْ سامعُه إلا القطن الذى فى وجه أمه فى القبْر ، لتفاغل إليه حتى يخرجَه ويهديه إلىّ . وأنا اليوم أتحدّث بذلك الحديث بعينه فما أفرغ منه حتى أُهَيِّئَ له اعتذارى . وارْتَدْ ، أى اطلب . والجلَب : ما يجلب إلى السوق للبيْع . امترِ : امسح ، ويفعل ذلك بالضَّرْع لأنّه يُدرّ لبنه . المنتجَع : موضع العشب ، أراد به موضع طلب الرزق . دَمِث : ليّن . اشْحَذْ : اجْلُ واصْقُل . وقال فى الدّرة: ويقولون: شَحّات بالتاء ، وصوابه ، بالذال لأن اشتقاقه من شحذْت السيف ، إذا بالغتَ فى إحداده فكأنّ الشحاذ هو المُلِحّ فى المسألة المبالغ فى طلب الصّدقة . بصيرتك : ذهنك . العِيافة : زَجْر الطير . أنعم : بالغ. القيافة : الاستدلال على الولَد ، وذلك أن ينظر خِلْقته وصفته ، فيشبّهه بأبيه . توسّمه : نظره . الفِرَاسة : الحكم بحالات الشىء على ما يكون منه فى المستقبل . الكلّ: الثقيل. والدّلّ والدلال بمعنًى واحد . العَلّ: الشُّرب بعد الشُّرب وراغباً عنه : تاركاً له . النقير : حفرة فى ظَهْر نوى التّمر ، ومنها تنبت النخلة . تقنط: تيأس . روح الله : رزقه ، ولبعضهم فى هذا المعنى :

سَيُفْتَح بابٌ إذا سُدَّ بَابُ ... نعم وتلين الأمور الصِّعَابُ

ويتّسع الحال من بعدمَا ... تضيق المذاهب فيه الرِّحَابُ

مع العسر يُسْرَان هوّن عليك ... فلا اليسر دامٍ ولا الاكتئابُ

إذا احتجبَ الناس من سائل ... فما دون سائل ربِّى حجابُ

آخر :

عَسَى فرجٌ يأْتى به الله إنه ... له كلَّ يومٍ فى خليقته أمْرُ
إذا اشتدّ عسرٌ فارج يُسْراً فإنه ... تضى الله أن العسْر يتبعه يسرُ

آخر :

فلا تجزَعْ إذا أعْسَرْتَ يوماً ... فقد أيْسَرْتَ فى الزَّمن الطويل
ولا تيأس فإن اليأس كفر ... لعل الله يُغْنِى عن قليل
وإن العسرَ يَتْبَعهُ يسارٌ ... وقول الله أصْدَقُ كلِّ قيلِ
ولا تظننْ بربّك ظنَّ سوء ... فإن الله أوْلَى بالجميل

قوله : ذَرّه، كناية عن الشىء القليل : دُرّة : جوهرة . آفات : جوائح . وللعزائم بدوات ، يريد أنّ الإنسان يعزم على فعل الشىء فى وقت ثم يبدو له ألّا يفعله . النَّجْز : تعجيل قضاء الحاجة، وقد قدّم مثل هذا المعنى عند قوله :

وبع آجلا منك بالعاجل .

* * *

وَعَلَيْك بصبْرِ أُولِى الْعَزْم ، ورِفقِ ذَوِى الْحَزْم ، وجَانِبْ خُرْقَ المشْتطّ ، وتخلَّق بأُخْلُقِ السَّبْط ، وقيّد الدِّرْهم بالرَّبط ، وشُبِ البذْل بالضَّبط ، ولا تجعل يَدَكَ مغلولةً إلى عُنُقِك ولا تَبْسُطْها كُلَّ الْبَسْط ، ومَتَى نَبَابِكَ بلد ، أو نابَكَ فيه كَمَد ، فبُتَّ منه أمَلَك ، واسْرَحْ عَنْهُ جملَك ، فخيْرُ البلادِ ما حَمَّلَك ، ولا تَسْتَثْقِلَنَّ الرِّحْلَة ، ولا تَكْرَهَنَّ النُّقْلَة ، فإنّ أعْلَامَ شريعتِنا ، وأشياخَ عشيرتنا ، أَجْمَعُوا على أنّ الحركة بَرَكة، والطَّرَاوة سُفْتَجه ، وزَرَوْا عَلَى مَنْ زعَم أنّ الغُرْبة كُرْبة، والنُّقْلَة مُثلة ، وقالوا : هى تَعِلَّةُ من افتنع بالرَّذِيلة ، ورَضِىَ بالْخَسْفِ وسُوءِ الكِيلَة . وإذا أزْمَعْتَ على الاغْتِرَاب ، وأعْدَدْتَ لهُ العَصَا والجِراب ،

فتخيرّ الرَّفيق المُسْعِد ،من قبل أن تُصْعِد ؛ فإن الجارَ قبلَ الدار، والرّفيقَ قبل الطريق .

خُـذْها إليك وصيّةً لم يُوصِها قبْـلِي أَحَدْ
غَرّاءَ حاويةً خَـلا صاتِ المعـانى والزُّبَدْ
نقّحتُهـا تنقِيحَ مَنْ مَحَضَ النَّصِحَيةَ واجْتَهَدْ
فاعمَـلْ بما مثّلْتُهُ عملَ اللّبيبِ أخِي الرّشَدْ
حتَّى يقولَ الناس هَـذَا الشِّبْلُ من ذَاكَ الأسَدْ

* * *

المشتطّ : المتجاوز القدر فى محاولته . والخُرْق ضدّ الرتق . السَّبْط : السهل. شُبْ : أخلط . البَذْل : العطاء . والضّبط : الحبس . قال أبو حاتم الدارى : دخلت مع أبى مدينة السلام فرأيت رجلًا واقفاً على الطريق يلعب بحيّة ويقول: مَنْ يهب لِي درهماً حتى أبتلع هـذه الحية ؟ فالتفت إلىّ أبى وقال : يا بنى احفظ دراهمك فمن أجلها تُبْلَع الحيات . مغلولة : محبوسة، أى لاتكن شحيحاً ممسكاً ولا كريماً متلفاً . نابَك : نزل بك . كمـد:حزن . بتّ : اقطع . أملك ، أى رجاءك : أسرح عنه ، أى أزله وسرحه بالمشْيِ إلى غيره . الرّحلة: الارتحال. النّقلة : الانتقال . أعلام شريعتنا : مشايخ طريقتنا . الطّراوة : أن يطرأ على بلد لم يره . السّفتجة : ما أتاك بغير تكلّف ولامشقّة ، وهى عند أهل المشرق أن يأخذَ الرجلُ الدراهمَ والدّنانير ، فيعطيها صاحبه ، ويقول : احملها لى معك لأمْن طريقِك ، ولمَنعتك إلى بلد كذا فادفعها إلىّ ،ثم فإن طريقى غير آمن من اللصوص . قال مالك رضى الله تعالى عنه : إن قَصَد بها المنفعة لَمْ يَجُزْ لأنه سَلَفٌ جرّ منفعة ، فيقول : الطراوة على الناس كالسَّفْتَجة، ترغب لك فى أخذ

الدراهم ، وقد يكون منك تمنّع عن أخذها . زرَوْا : عابوا . كربة : همّ ، وقالَ: مَنْ ذمّ السفر : الغربة كربة والنّقلة مُثلة ، والغريب كالغرس الّذى زايل أصله وفقد شربه ، فهو ذاوٍ لا يثمر وذابلٌ لا ينضر. إذا كنت فى غير بلدك فلا تَنْس نصيبك من الذل . تعلّة : عذر. الرذيلة : الدون من كلّ شىء. الخشَف : الردىء من التمر . الكِيلة الهيئة، ومعناه أنه اجتمع عليه عيبان: تمر فاسد وكيل ناقص. أزمعت : عزمت . الاغتراب : الجـوَلان والغربة . الجُراب : الوعاء للزاد . المسعد : الموافق القليل الخلاف . تُصعد : ترتفع وتخرج ، الجار قبل الدار، يقول: لاتشتر داراً حتى تعلم مَنْ جيرانُك ، وكفى الجـار أن قال صلى الله عليه وسلم فى حقه : « مازال جبريل يُوصينى بالجـــار حتى خفت أن يورّثه » ، وقال الزاهد ابن عمران :

لِتُعْنَ بالجـار قبل الدارِ تسكنُها ... لاخيرَ فى الدار مالم يحمَـد الجارُ

الجار إن غبت عن أهلٍ وعن وطنٍ ... نعم الخليفةُ هم أهـــلٌ وأنصارُ

والجار المساعد أحسن من القرابة . ويروى أن رجلا كان جاراً لأبى دلف ببغداد، فأدركته حاجة، وركبه دَيْن فادح حتى احتاج إلى بيع داره، فساوموه فيها ، فسمّى لهم ألف دينـار ، فقالوا له : إنّ دارك تساوى خمسمائة دينار ، فقال: أبيع دارى بخمسمائة وجوار أبى دلف بخمسمائة ، فبلغ أبا دلف الخبر، فأمر بقضاء دينه ووصلَه ، وقال : لاتنتقل من جِوارنا ، فانظر كيف صار الجـوار يُباع كما يباع العقار ، وقال الشاعر :

يلومونى أن بعت بالرّخص منزلى ... ولم يعلموا جاراً هنـاك ينغّصُ

فقلت لهم كفّوا الملـــلام فإنما ... بجيرانها تغـلُو الديارُ وترخُصُ

غراء : ظاهرة حسنة . حاوية : جامعة . خلاصات : جمع خلاصة ، وهو الذى يتخلّص من الشىء ويصفو منـــه ، والزُّبد : جمع زبدة اللبن . نقّحتُها :

هذَّبتها . محَضَ : أخلص . اللبيب : العاقل . أخى الرّشد : صاحبُ الرّشد الشِّبل : ولد الأسد .

* * *

ثم قال : يابنىّ ، قد أوصيتُ واستقصيْتُ ، فإن اقتديتَ فواهاً لك، وإن اعْتدَيت فَآهاً منك ، والله خليفتى عَلَيْك ، وأرجو ألّا تُخلف ظنّى فيك .

فقال له ابنه : يا أبتِ لا وُضِع عَرْشُكَ ، ولا رُفِع نعشُك ، فلقد قلتَ سَدداً ، وعلَّمتَ رَشَداً ، ونَحلْتَ ما لم يَنْحَلْ والدٌ ولَداً ، ولئن أُمْهِلتُ بَعْدك — لا ذقتُ فَقْدَك — فلأُ تأدَّبَنَّ بآدابك الصَّالحة ، ولأقتدينّ بآثارِك الْواضحة ؛حتى يقال: ما أشْبَه اللَّيلَة بالبارحة والغادية بالرّائحة!فاهتزّ أبو زيد لجوابِهِ وابْتَسَم ، وقال: مَنْ أشبه أباه فما ظَلَم .

قال الحارث بن همام: فأُخْبِرتُ بأن بَنِي ساسَان،حينَ سمعوا هذِي الوصايا الحسَان، فضَّلوها على وَصايا لقمان ، وحفظوها كما تُحفَظُ أُمُّ القرآن ؛حتَّى إنَّهُمْ ليرونَها إلى الآن، أوْلَى مالقّنُوه الصّبيان،وَأَنْفع لهم من نحلةِ العِقْيَان.

* * *

غرّاء : ظاهرة حسنة . حاوية : حامعه . خلاصات : جمع خلاصة وهو الذى يصفو منه . والزبد : جمع زبدة اللبن اقتديت : اتّبعتَ وصيتى . واهاً : عجباً . اعتديت : ظلمت . آها : كلمة معناها التوجّع. عرشك: سريرك، والمعنى أنه يدعو له بالبقاء. سَدَداً : صوابا . نحلت : أعطيت . الواضحة : البينة . الغادية: السحابة تأتى بالغدو . والرّائحة بالعشىّ ، قال الفراء النحوىّ : مَنْ أشبه أباه فما ظلم مثل أخذه الناس من قول كعب بن زهير :

أنا ابنُ الذى لم يخزِنى فى حياته قــديماً ومَنْ يشبِهْ أباه فماظلم

لقّنوه : عَلّموه . أوْلَى . أحق . نِحْلة : عطية . العِقْيان : الذّهَب .